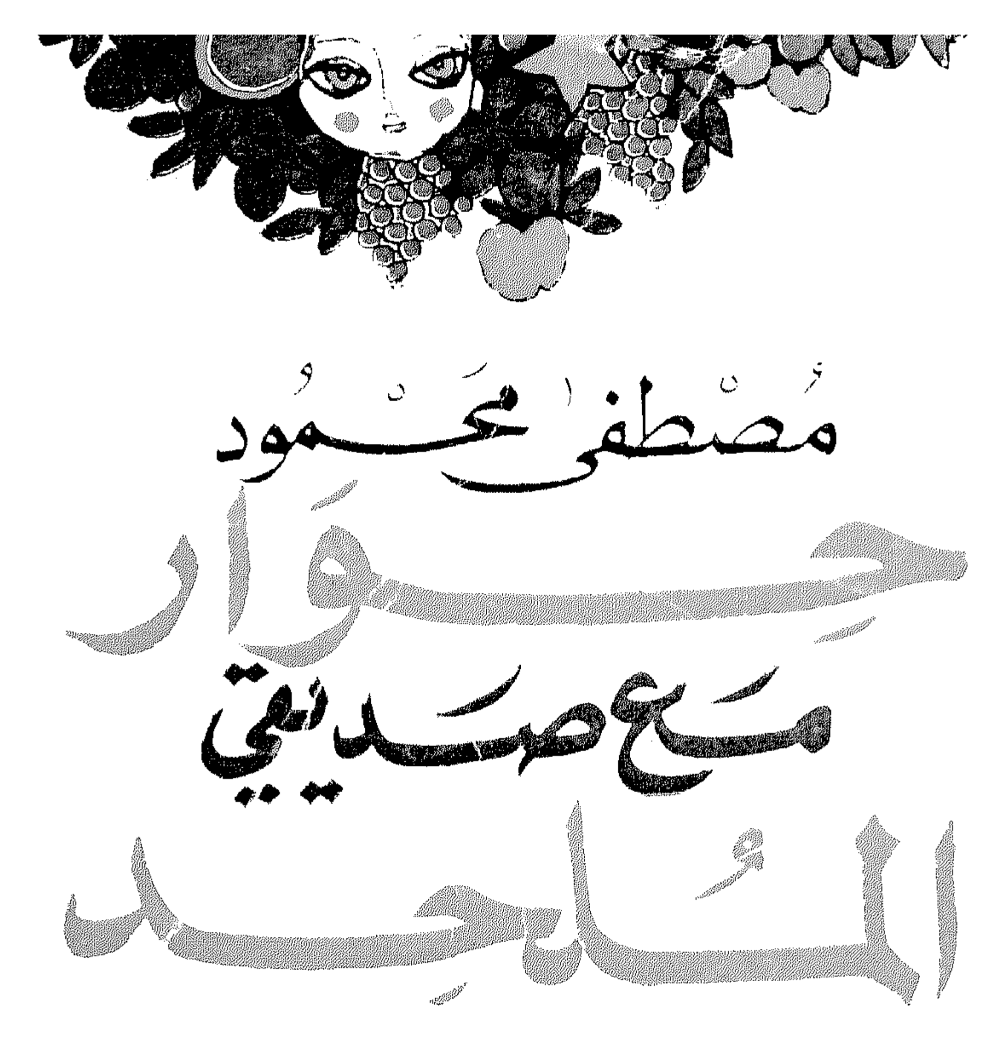


مُصطفى محمود

حوار مع صديقي المُلحِد



دار العودة - بيروت

حــــوار
مع صديقي الملحد

حوار
مع صديقي الملحد

مصطفى محمود

١٩٨٦

كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر
تلفون : ٣١٠٨٤٠ - ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
تلكس AWDA 23682 LE
ص . ب ١٤٦٢٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

● لم يلد ولم يولد

صديقي رجل يحب الجدل ويهوى الكلام وهو يعتقد أننا نحن المؤمنون السذج نقتات بالأوهام ونضحك على أنفسنا بالجنة والحور العين وتفوتنا لذات الدنيا ومفاتنها . . وصديقي بهذه المناسبة تخرّج من فرنسا وحصل على دكتوراه وعاش مع الهيبيز وأصبح ينكر كلّ شيء .

ـ قال لي ساخراً :

ـ انتم تقولون : ان الله موجود ، وعمدة براهينكم هو قانون « السببية » الذي ينص على أن لكل صنعة صانعا ولكل خلق خالقا ولكل وجود موجدا . . النسيج يدل على النساج والرسم على الرسام والنقش على النقاش والكون بهذا المنطق أبلغ دليل على الإله القدير الذي خلقه .

صدقنا وآمنا بهذا الخالق . . ألا يحق لنا بنفس المنطق أن نسأل . . ومن خلق الخالق . . من خلق الله الذي تحدثوننا عنه . . ألا تقودنا نفس استدلالاتكم الى هذا . . وتبعا لنفس قانون السببية . . ما رأيكم في هذا المطب دام فضلكم ؟ .

ونحن نقول له : سؤالك فاسد . . ولا مطب ولا حاجة فأنت تسلم بأن الله خالق ثم تقول من خلقه ؟! فتجعل منه خالقا ومخلوقا في نفس الجملة وهذا تناقض .

والوجه الآخر لفساد السؤال أنك تتصور خضوع الخالق لقوانين مخلوقاته . . فالسببية قانوننا نحن أبناء الزمان والمكان .

والله الذي خلق الزمان والمكان هو بالضرورة فوق الزمان والمكان ولا يصح لنا أن نتصوره مقيدا بالزمان والمكان ولا بقوانين الزمان والمكان .

والله هو الذي خلق قانون السببية فلا يجوز ان نتصوره خاضعا لقانون السببية الذي خلقه .

وأنت بهذه السفسطة أشبه بالعرائس التي تتحرك بزمبلك وتتصور أن الانسان الذي صنعها لا بد هو الآخر يتحرك بزمبلك . . فاذا قلنا لها بل هو يتحرك من تلقاء نفسه . . قالت : مستحيل أن يتحرك شي ء من تلقاء نفسه . . أني أرى في عالمي كل شي ء يتحرك بزمبلك .

وأنت بالمثل لا تتصور أن الله موجود بذاته بدون موجد . . لمجرد أنك ترى كل شي ء حولك في حاجة الى موجد .

وأنت كمن يظن أن الله محتاج الى براشوت لينزل على البشر والى اتوبيس سريع ليصل الى أنبيائه . سبحانه وتعالى عن هذه الاوصاف علوا كبيرا .

« وعمانويل كانت » الفيلسوف الالماني في كتابه « نقد العقل الخالص » أدرك أن العقل لا يستطيع أن يحيط بالحقائق اللامحدودة وانه مهيأ بطبيعته لادراك الجزئيات فقط بينما هو قاصر عن ادراك الوجود الكلي مثل الوجود الالهي . . وانما عرفنا الله بالضمير وليس بالعقل . . شوقنا الى

العدل كان دليلنا على وجود العادل . . كما أن ظمأنا الى الماء هو دليلنا على وجود الماء .

أما أرسطو فقد استطرد في تسلسل الاسباب قائلا : ان الكرسي من الخشب والخشب من الشجرة والشجرة من البذرة والبذرة من الزارع . . واضطر الى القول بأن هذا الاستطراد المتسلسل في الزمن اللانهائي لا بد وأن ينتهي بنا في البدء الاول الى سبب في غير حاجة الى سبب . . سبب أول أو محرك أول في غير حاجة الى من يحركه . . خالق في غير حاجة الى خالق . . وهو نفس ما نقوله عن الله .

أما ابن عربي فكان رده على هذا السؤال ﴿سؤال من خلق الخالق﴾ . . بأنه سؤال لا يرد الا على عقل فاسد . . فالله هو الذي يبرهن على الوجود ولا يصح أن نتخذ من الوجود برهانا على الله . . تماما كما نقول أن النور يبرهن على النهار . . ونعكس الآية لو قلنا ان النهار يبرهن على النور .

يقول الله في حديث قدسي :

﴿انا يستدل بي . . انا لا يستدل علي﴾ .

فالله هو الدليل الذي لا يحتاج الى دليل لأن الله هو الحق الواضح بذاته . . وهو الحجة على كل شيء . . الله ظاهر في النظام والدقة والجمال والاحكام . . في ورقة الشجر . . في ريشة الطاووس في جناح الفراش . . في عطر الورد . . في صدح البلبل . . في ترابط النجوم والكواكب في هذا القصيد السيمفوني الذي اسمه الكون . . لو قلنا ان

كل هذا جاء صدفة . . لكنا كمن يتصور ان القاء حروف مطبعة في الهواء يمكن ان يؤدي الى تجمعها تلقائيا على شكل قصيدة شعر لشكسبير بدون شاعر وبدون مؤلف .

والقرآن يغنينا عن هذه المجادلات بكلمات قليلة وبليغة فيقول بوضوح قاطع ودون تفلسف :

﴿قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد﴾

●

ويسألنا صاحبنا ساخرا . . ولماذا تقولون أن الله واحد . . لماذا لا يكون الالهة متعددين . . يتوزعون بينهم الاختصاصات .

وسوف نرد عليه بالمنطق الذي يعترف به . . بالعلم وليس بالقرآن .

سوف نقول له ان الخالق واحد لأن الكون كله مبني من خامة واحدة وبخطة واحدة . . فمن الايدروجين تألفت العناصر الاثنان والتسعون التي في جدول مندليف بنفس الطريقة « بالادماج » واطلاق الطاقة الذرية التي تتأجج بها النجوم وتشتعل الشموس في فضاء الكون .

كما أن الحياة كلها بنيت من مركبات الكربون (جميع صنوف الحياة تتفحم بالاحتراق) على مقتضى خطة تشريحية واحدة . تشريح الضفدعة والارنب والحمامة والتمساح والزرافة والحوت يكشف عن خطة تشريحية واحدة نفس الشرايين والاوردة وغرفات القلب . . ونفس العظام كل

عظمة لها نظيرتها . . الجناح في الحمامة هو الذراع في الضفدعة . . نفس العظام مع تحور طفيف . . والعنق في الزرافة على طوله نجد فيه نفس الفقرات السبع التي نجدها في عنق القنفذ . . والجهاز العصبي هو هو في الجميع يتألف من مخ وحبل شوكي وأعصاب حس وأعصاب حركة . . والجهاز الهضمي من معدة «واثنا عشر» وامعاء دقيقة وامعاء غليظة . . والجهاز التناسلي نفس المبيض والرحم والخصية وقنواتها . . والجهاز البولي ، الكلية والحالب ، وحويصلة البول . . ثم الوحدة التشريحية . الجميع هي الخلية . . وهي في النبات كما في الحيوان كما في الانسان نفس المواصفات . . تتنفس وتتكاثر وتموت وتولد بنفس الطريقة .

فأية غرابة بعد هذا أن نقول ان الخالق واحد .

ولماذا يتعدد الكامل . وهل به نقص ليحتاج الى من يكمله . انما يتعدد الناقصون .

ولو تعدد الالهة لاختلفوا ولذهب كل إله بما خلق ولفسدت الأرض .

والله له الكبرياء والجبروت وهذه صفات لا تحتمل الشركة .

ويسخر صاحبنا من معنى الربوبية كما نفهمه . . ويقول أليس عجيبا ذلك الرب الذي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة فيأخذ بناصية الدابة ويوحي الى النحل ان تتخذ من الجبال بيوتا . . وما تسقط من ورقة الا يعلمها . . وما تخرج من ثمرات من أكمامها إلا أحصاها عددا . . وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه . . اذا عثرت قدم في حفرة فهو الذي أعثرها . . واذا سقطت ذبابة في طعام فهو الذي أسقطها . . واذا تعطلت

الحرارة في تليفون فهو الذي عطلها . . واذا امتنع المطر فهو الذي منعه واذا هطل فهو الذي أهطله . . الا تشغلون إلهكم بالكثير التافه من الامور بهذا الفهم .

ولا أفهم أيكون الرب في نظر السائل أجدر بالربوبية لو أنه اعفى نفسه من هذه المسؤوليات وأخذ إجازة وأدار ظهره للكون الذي خلقه وتركه يأكل بعضه بعضا .

هل الرب الجديد في نظره هو رب عاطل مغمى عليه لا يسمع ولا يرى ولا يستجيب ولا يعتني بمخلوقاته ثم من أين للسائل بالعلم بأن موضوعا ما تافه لا يستحق تدخل الإله وموضوعا آخر مهم وخطير الشأن .

ان الذبابة التي تبدو تافهة في نظر السائل فلا يهم في نظره أن تسقط في الطعام أو لا تسقط هذه الذبابة يمكن أن تغير التاريخ بسقوطها التافه ذلك . . فانها يمكن ان تنقل الكوليرا الى جيش وتكسب معركة لطرف آخر تتغير بعدها موازين التاريخ كله .

ألم تقتل الاسكندر الاكبر بعوضة .

ان أتفه المقدمات ممكن أن تؤدي الى أخطر النتائج . . وأخطر المقدمات ممكن أن تنتهي الى لا شيء . . وعالم الغيب وحده هو الذي يعلم قيمة كل شيء . .

وهل تصور السائل نفسه وصيا على الله يحدد له اختصاصاته . . تقدس وتنزه ربنا عن هذا التصور الساذج .

انما الإله الجدير بالالوهية هنا هو الإله الذي احاط بكل شيء علما . . لا يغرب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء .

الاله السميع المجيب المعتني بمخلوقاته .

● إذا كان الله قدّر عليّ أفعالي فلماذا يحاسبني ؟

قال صديقي في شماتة وقد تصور أنه أمسكني من.عنقي وأنه لا مهرب لي هذه المرة .

ـ انتم تقولون ان الله يجري كل شي ء في مملكته بقضاء وقدر وان الله قدر علينا أفعالنا ، فاذا كان هذا هو حالي . . وان افعالي كلها مقدرة عنده فلماذا يحاسبني عليها .

لا تقل لي كعادتك . . أنا مخير . . فليس هناك فرية أكبر من هذه الفرية .

ودعني أسألك .

هل خيرت في ميلادي وجنسي وطولي وعرضي ولوني ووطني ؟؟

هل باختياري تشرق الشمس ويغرب القمر ؟؟

هل باختياري ينزل عليّ القضاء ويفاجئني الموت واقع في المأساة فلا أجد مخرجا الا الجريمة . . لماذا يكرهني الله على فعل ثم يؤاخذني عليه ؟

واذا قلت انك حر وان لك مشيئة الى جوار مشيئة الله ألا تشرك بهذا الكلام وتقع في تعدد المشيئات .

ثم ما قولك في حكم البيئة والظروف وفي الحتميات التي يقول بها

الماديون التاريخيون .

أطلق صاحبي هذه الرصاصات ثم راح يتنفس الصعداء في راحة وقد تصور اني توفيت وانتهيت ولم يبق أمامه الا استحضار الكفن .

قلت له في هدوء :

ـ أنت واقع في عدة مغالطات . . فأفعالك معلومة عند الله في كتابه . ولكنها ليست مقدورة عليك بالاكراه . . انها مقدرة في علمه فقط . . كما تقدر أنت بعلمك ان ابنك سوف يزني . . ثم يحدث ان يزني بالفعل . . فهل اكرهته . . أم كان هذا تقديرا في العلم وقد أصاب علمك .

أما كلامك عن الحرية بأنها فرية وتدليلك على ذلك بأنك لم تخير في ميلادك ولا في جنسك ولا في طولك ولا في لونك ولا في موطنك . . وانك لا تملك نقل الشمس من مكانها . . فهو تخليط آخر .

وسبب التخليط هذه المرة أنك تتصور الحرية بطريقة غير تلك التي نتصورها نحن المؤمنون .

أنت تتكلم عن حرية مطلقة . . فتقول . . أكنت أستطيع ان اخلق نفسي أبيض أو أسود أو طويلا أو قصيرا . . هل بامكاني أن أنقل الشمس من مكانها أو أوقفها في مدارها . . أين حريتي .

ونحن نقول له . . أنت تسأل عن حرية مطلقة . . حرية التصرف في الكون وهذه ملك لله وحده . . نحن أيضا لا نقول بهذه الحرية :

﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾

٦٨ ـ القصص

ليس لأحد الخيرة في مسألة الخلق لأن الله هو الذي يخلق ما يشاء ويختار .

ولن يحاسبك الله على قصرك ولن يعاتبك على طولك ولن يعاقبك لانك لم توقف الشمس في مدارها .

ولكن مجال المساءلة هو مجال التكليف . . وأنت في هذا المجال حر . . وهذه هي الحدود التي نتكلم فيها .

أنت حر في أن تقمع شهوتك وتلجم غضبك وتقاوم نفسك وتزجر نياتك الشريرة وتشجع ميولك الخيرة .

أنت تستطيع أن تجود بمالك ونفسك .

أنت تستطيع أن تصدق وأن تكذب .

وتستطيع أن تكف يدك عن المال الحرام .

وتستطيع أن تكف بصرك عن عورات الآخرين .

وتستطيع أن تمسك لسانك عن السباب والغيبة والنميمة .

في هذا المجال نحن احرار .

وفي هذا المجال نحاسب ونسأل .

الحرية التي يدور حولها البحث هي الحرية النسبية وليست الحرية المطلقة . حرية الانسان في مجال التكليف .

وهذه الحرية حقيقة ودليلنا عليها هو شعورنا الفطري بها في داخلنا . . فنحن نشعر بالمسؤولية وبالندم على الخطأ وبالراحة للعمل الطيب . . ونحن نشعر في كل لحظة أننا نختار ونوازن بين احتمالات

متعددة . بل ان وظيفة عقلنا الاولى هي الترجيح والاختيار بين البديلات .

ونحن نفرق بشكل واضح وحاسم بين يدنا ترتعش بالحمى ويدنا وهي تكتب خطابا . . فنقول ان الحركة الاولى جبرية قهرية والحركة الثانية حرة اختيارية . . ولو كنا مسيرين في الحالتين لما استطعنا التفرقة .

ويؤكد هذه الحرية ما نشعر به من استحالة اكراه القلب على شيء لا يرضاه تحت أي ضغط ، فيمكنك ان تكره امرأة بالتهديد والضرب على أن تخلع ثيابها . . ولكنك لا تستطيع بأي ضغط أو تهديد ان تجعلها تحبك من قلبها . . ومعنى هذا ان الله اعتق قلوبنا من كل صنوف الاكراه والاجبار وانه فطرها حرة .

ولهذا جعل الله القلب والنية عمدة الاحكام . فالمؤمن الذي ينطق بعبارة الشرك والكفر تحت التهديد والتعذيب لا يحاسب على ذلك طالما ان قلبه من الداخل مطمئن بالايمان وقد استثناه الله من المؤاخذة في قوله :

﴿الا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ ١٠٦ ـ النحل

والوجه الآخر من الخلط في هذه المسألة ان بعض الناس يفهم حرية الانسان بأنها علو على المشيئة وانفراد بالأمر فيتهم القائلين بالحرية بأنهم اشركوا بالله وجعلوا له اندادا يأمرون كأمره ويحكمون كحكمه وهذا ما فهمته أنت ايضا . . فقلت بتعدد المشيئات . . وهو فهم خاطىء . فالحرية الانسانية لا تعلو على المشيئة الإلهية . .

ان الانسان قد يفعل بحريته ما ينافي الرضا الإلهي ولكنه لا يستطيع

ان يفعل ما ينافي المشيئة .

الله اعطانا الحرية ان نعلو على رضاه (فنعصيه) . ولكن لم يعط أحدا الحرية في ان يعلو على مشيئته . . وهنا وجه آخر من وجوه نسبية الحرية الانسانية .

•كل ما يحدث منا داخل في المشيئة الالهية وضمنها وان خالف الرضا الإلهي وجانب الشريعة .

وحريتنا ذاتها كانت منحة إلهية وهبة منحها لنا الخالق باختياره . . ولم نأخذها منه كرها ولا غصبا .

ان حريتنا كانت عين مشيئته .

ومن هنا معنى الآية :

﴿وما تشاؤون الا أن يشاء الله﴾ ٣٠ ـ الانسان

لأن مشيئتنا ضمن مشيئته . . ومنحة منه . . وهبة من كرمه وفضله . . فهي ضمن ارادته ، لا ثنائية ولا تناقض . . ولا منافسة منا لأمر الله وحكمه .

والقول بالحرية بهذا المعنى لا ينافي التوحيد ، ولا يجعل لله اندادا يحكمون كحكمه ويأمرون كأمره . . فان حرياتنا كانت عين أمره ومشيئته وحكمه .

والوجه الثالث للخلط أن بعض من تناولوا مسألة القضاء والقدر والتسيير والتخيير . . فهموا القضاء والقدر بأنه اكراه للانسان على غير

طبعه وطبيعته وهذا خطأ وقعت فيه أنت أيضا . . وقد نفى الله عن نفسه الإكراه بآيات صريحة :

﴿ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين﴾
٤ ـ الشعراء

والمعنى واضح . . انه كان من الممكن ان نكره الناس على الايمان بالآيات الملزمة ولكننا لم نفعل . . لأنه ليس في سنتنا الاكراه .

﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ ٢٥٦ ـ البقرة

﴿ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ٩٩ ـ يونس .

ليس في سنة الله الاكراه .

والقضاء والقدر لا يصح ان يفهم انه اكراه للناس على غير طبائعهم . . وانما على العكس . الله يقضي على كل انسان من جنس نيته ويشاء له من جنس مشيئته ويريد له من جنس ارادته ، لا ثنائية . . تسيير الله هو عين تخيير العبد لان الله يسير كل امرىء على هوى قلبه وعلى مقتضى نياته .

﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ ٢٠ ـ الشورى .

﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ ١٠ ـ البقرة

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ ١٧ ـ محمد

وهو يخاطب الاسرى في القرآن .

﴿ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما اخذ منكم﴾
٧٠ ـ الانفال

الله يقضي ويقدر ويجري قضاءه وقدره على مقتضى النية والقلب . . إن شرا بشر وإن خيرا بخير .

ومعنى هذا انه لا ثنائية . . التسيير هو عين التخيير ولا ثنائية ولا تناقض .

الله يسيرنا الى ما اخترناه بقلوبنا ونياتنا فلا ظلم ولا اكراه ولا جبر . . ولا قهر لنا على غير طبائعنا .

﴿فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾
٥ ـ ١٠ ـ الليل

﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾ ١٧ ـ الانفال

هنا تلتقي رمية العبد والرمية المقدرة من الرب فتكون رمية واحدة . . وهذا مفتاح لغز القضاء والقدر . . على العبد النية وعلى الله التمكين ان خيرا بخير وان شرا بشر .

والحرية الانسانية ليست مقدارا ثابتا ولكنها قدرة نسبية قابلة للزيادة .

الانسان يستطيع ان يزيد من حريته بالعلم . . باختراع الوسائل والادوات والمواصلات استطاع الانسان ان يطوي الارض ويهزم المسافات ويخترق قيود الزمان والمكان . . وبدراسة قوانين البيئة استطاع أن يتحكم

فيها ويسخرها لخدمته وعرف كيف يهزم الحر والبرد والظلام وبذلك يضاعف من حرياته في مجال الفعل .

العلم كان وسيلة الى كسر القيود والاغلال واطلاق الحرية . أما الوسيلة الثانية فكانت الدين . . الاستمداد من الله بالتقرب منه . . والاخذ عنه بالوحي والتلقي والتأييد . . وهذه وسيلة الانبياء ومن في دربهم .

سخر سليمان الجن وركب الريح وكلم الطير بمعونة الله ومدده . . وشق موسى البحر . . وأحيا المسيح الموتى ومشى على الماء وأبرأ الاكمة والابرص والاعمى .

ونقرأ عن الاولياء اصحاب الكرامات الذين تطوي لهم الارض وتكشف لهم المغيبات .

وهي درجات من الحرية اكتسبوها بالاجتهاد في العبادة والتقرب الى الله والتحبب اليه . . فأفاض عليهم من علمه المكنون .

انه العلم مرة أخرى .

ولكنه هذه المرة العلم « اللدني » .

ولهذا يلخص أبو حامد الغزالي مشكلة المخير والمسير قائلا في كلمتين :

الانسان مخير فيما يعلم . .

مسير فيما لا يعلم . .

وهو يعني بهذا انه كلما اتسع علمه كلما اتسع مجال حريته . . سواء

كان العلم المقصود هو العلم الموضوعي أو العلم اللدني .

●

ويخطىء المفكرون الماديون أشد الخطأ حينما يتصورون الانسان أسير الحتميات التاريخية والطبقية ويجعلون منه حلقة في سلسلة من الحلقات لا فكاك له ولا مهرب من الخضوع لقوانين الاقتصاد وحركة المجتمع وكأنما هو قشة في تيار بلا ذراعين وبلا ارادة . .

والكلمة التي يرددونها ولا يتعبون من ترديدها وكأنها قانون . . « حتمية الصراع الطبقي » . . هي كلمة خاطئة في التحليل العلمي . . لانه لا حتميات في المجال الانساني . . وانما على الاكثر ترجيحات واحتمالات . . وهذا هو الفرق بين الانسان . . وبين التروس والآلات والاجسام المادية . . فيمكن التنبؤ بخسوف الشمس بالدقيقة والثانية ويمكن التنبؤ بحركاتها المستقبلة على مدى أيام وسنين . . اما الانسان فلا يمكن ان يعلم أحد ماذا يضمر وماذا يخبىء في نياته وماذا يفعل غدا أو بعد غد . . ولا يمكن معرفة هذا الا على سبيل الاحتمال والترجيح والتخمين وذلك على فرض توفر المعلومات الكافية للحكم .

وقد أخطأت جميع تنبؤات كارل ماركس فلم تبدأ الشيوعية في بلد متقدم كما تنبأ بل في بلد متخلف . ولم يتفاقم الصراع بين الرأسمالية والشيوعية بل تقارب الاثنان الى حالة من التعايش السلمي وأكثر من هذا فتحت البلاد الشيوعية أبوابها لرأس المال الامريكي . . ولم تتصاعد التناقضات في المجتمع الرأسمالي الى الافلاس الذي توقعه كارل ماركس بل على العكس ازدهر الاقتصاد الرأسمالي ووقع الشقاق والخلاف بين

أطراف المعسكر الاشتراكي ذاته .

أخطأت حسابات ماركس جميعها دالة بذلك على خطأ منهجه الحتمي . . ورأينا صراع العصر الذي يحرك التاريخ هو الصراع اللاطبقي بين الصين وروسيا وليس الصراع الطبقي الذي جعله ماركس عنوان منهجه . . وكلها شواهد على فشل الفكر المادي في فهم الانسان والتاريخ وتخبطه في حساب المستقبل . . وجاء كل ذلك نتيجة خطأ جوهري . . ان الفكر المادي تصور ان الانسان ذبابة في شبكة من الحتميات . . ونسي تماما ان الانسان حر . . وأن حريته حقيقة .

أما كلام الماديين عن حكم البيئة والمجتمع والظروف وان الانسان لا يعيش وحده ولا تتحرك حريته في فراغ .

نقول ردا على هذا الكلام ان حكم البيئة والمجتمع والظروف كمقاومات للحرية الفردية يؤكد المعنى الجدلي لهذه الحرية ولا ينفيه . . فالحرية الفردية لا تؤكد ذاتها الا في وجه مقاومة تزحزحها . . أما اذا كان الانسان يتحرك في فراغ بلا مقاومة من أي نوع فانه لا يكون حرا بالمعنى المفهوم للحرية لانه لن تكون هناك عقبة يتغلب عليها ويؤكد حريته من خلالها .

● لماذا خلق الله الشر ؟

قال صاحبي ساخرا :

كيف تزعمون أن الحكم كامل ورحمن ورحيم وكريم ورؤوف وهو قد خلق كل هذه الشرور في العالم . . المرض والشيخوخة والموت والزلزال والبركان والميكروب . والسم والحر والزمهرير وآلام السرطان التي لا تعفي الطفل الوليد ولا الشيخ الطاعن .

اذا كان الله محبة وجمالا وخيرا فكيف يخلق الكراهية والقبح والشر .

والمشكلة التي أثارها صاحبي من المشاكل الاساسية في الفلسفة وقد انقسمت حولها مدارس الفكر واختلفت حولها الآراء .

ونحن نقول : ان الله كله رحمة وكله خير وانه لم يأمر بالشر ولكنه سمح به لحكمة .

﴿ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله ما لاتعلمون . قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾

٢٨ ـ الاعراف

الله لا يأمر الا بالعدل والمحبة والاحسان والعفو والخير وهو لا يرضى الا بالطيب .

فلماذا ترك الظالم يظلم والقاتل يقتل والسارق يسرق .

لان الله أرادنا أحرارا . . والحرية اقتضت الخطأ ولا معنى للحرية دون أن يكون لنا حق التجربة والخطأ والصواب . . والاختيار الحر بين المعصية والطاعة .

وكأن في قدرة الله ان يجعلنا جميعا اخيارا وذلك بأن يقهرنا على الطاعة قهرا وكان ذلك يقتضي أن يسلبنا حرية الاختيار .

وفي دستور الله وسنته ان الحرية مع الالم أكرم للانسان من العبودية مع السعادة . . ولهذا تركنا نخطىء ونتألم ونتعلم وهذه هي الحكمة في سماحه بالشر .

ومع ذلك فان النظر المنصف المحايد سوف يكشف لنا ان الخير في الوجود هو القاعدة وان الشر هو الاستثناء . . فالصحة هي القاعدة والمرض استثناء ونحن نقضي معظم سنوات عمرنا في صحة ولا يزورنا المرض الا أياما قليلة . . وبالمثل الزلازل هي في مجملها بضع دقائق في عمر الكرة الارضية الذي يحصى بملايين السنين وكذلك البراكين وكذلك الحروب هي تشنجات قصيرة في حياة الامم بين فترات سلام طويلة ممتدة .

ثم اننا نرى لكل شيء وجه خير فالمرض يخلف وقاية والالم يربي الصلابة والجلد والتحمل والزلازل تنفس عن الضغط المكبوت في داخل الكرة الارضية وتحمي القشرة الارضية من الانفجار وتعيد الجبال الى أماكنها كأحزمة وثقالات تثبت القشرة الارضية في مكانها ، والبراكين

تنفث المعادن والثروات الخبيئة الباطنة وتكسو الارض بتربة بركانية خصبة . . والحروب تدمج الامم وتلقح بينها وتجمعها في كتل وأحلاف ثم في عصبة أمم ثم في مجلس امن هو بمثابة محكمة عالمية للتشاكي والتصالح . . وأعظم الاختراعات خرجت أثناء الحروب . . البنسلين، الذرة ، الصواريخ ، الطائرات النفاثة كلها خرجت من أتون الحروب .

ومن سم الثعبان يخرج الترياق .

ومن الميكروب نصنع اللقاح .

ولولا أن أجدادنا ماتوا لما كنا الآن في مناصبنا . والشر في الكون كالظل في الصورة اذا اقتربت منه خيل اليك انه عيب ونقص في الصورة. . ولكن اذا ابتعدت ونظرت الى الصورة ككل نظرة شاملة اكتشفت انه ضروري ولا غنى عنه وانه يؤدي وظيفة جمالية في البناء العام للصورة .

وهل كان يمكننا أن نعرف الصحة لولا المرض . . ان الصحة تظل تاجا على رؤوسنا لا نراه ولا نعرفه الا حينما نمرض .

وبالمثل ما كان ممكنا ان نعرف الجمال لولا القبح ولا الوضع الطبيعي لولا الوضع الشاذ .

ولهذا يقول الفيلسوف أبو حامد الغزالي : ان نقص الكون هو عين كماله مثل اعوجاج القوس هو عين صلاحيته ولو انه استقام لما رمى .

وظيفة أخرى للمشقات والآلام . . انها هي التي تفرز الناس وتكشف معادنهم .

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

انها الامتحان الذي نعرف به أنفسنا . . والابتلاء الذي تتحدد به مراتبنا عند الله .

ثم ان الدنيا كلها ليست سوى فصل واحد من رواية سوف تتعدد فصولها فالموت ليس نهاية القصة ولكن بدايتها .

ولا يجوز ان نحكم على مسرحية من فصل واحد ولا ان نرفض كتابا لان الصفحة الاولى لم تعجبنا .

الحكم هنا ناقص .

ولا يمكن استطلاع الحكمة كلها الا في آخر المطاف . . ثم ما هو البديل الذي يتصوره السائل الذي يسخر منا .

هل يريد أن يعيش حياة بلا موت بلا مرض بلا شيخوخة بلا نقص بلا عجز بلا قيود بلا أحزان بلا آلام .

هل يطلب كمالا مطلقا .

ولكن الكمال المطلق لله .

والكامل واحد لا يتعدد . . ولماذا يتعدد . . وماذا ينقصه ليجده في واحد آخر غيره .

معنى هذا ان صاحبنا لن يرضيه الا أن يكون هو الله ذاته وهو

التطاول بعينه .

ودعونا نسخر منه بدورنا . . هو وأمثاله ممن لا يعجبهم شيء .

هؤلاء الذين يريدونها جنة .

ماذا فعلوا ليستحقونها جنة .

وماذا قدم صاحبنا للانسانية ليجعل من نفسه الله الواحد القهار الذي يقول للشيء كن فيكون .

ان جدتي اكثر ذكاء من الاستاذ الدكتور المتخرج من فرنسا بينما تقول في بساطة :

« خير من الله شر من نفوسنا » .

انها كلمات قليلة ولكنها تلخيص امين للمشكلة كلها . . فالله ارسل الرياح وأجرى النهر ولكن ربان السفينة الجشع ملأ سفينته بالناس والبضائع بأكثر مما تحتمل فغرقت فمضى يسب الله والقدر . . وما ذنب الله . . الله أرسل الرياح رخاء وأجرى النهر خيرا . . ولكن جشع النفوس وطمعها هو الذي قلب هذا الخير شرا .

ما اصدقها من كلمات جميلة طيبة .

« خير من الله شر من نفوسنا » .

● وما ذنب الذي لم يصله قرآن ؟

هرش صاحبنا الدكتور رأسه .

كان من الواضح أنه يبحث لي في الدكتوراه عن حفرة او مطب يدق عنقي فيه . . ثم قال في هدوء وهو يرتب كلماته :

ـ حسنا . . وما رأيك في هذا الانسان الذي لم يصله قرآن ولم ينزل عليه كتاب . . ولم يأته نبي . . ما ذنبه . . وما مصيره عندكم يوم الحساب . . مثل اسكيمو في أقاصي القطبين . . أو زنجي في الغابات . . ماذا يكون حظه بين يدي إلهكم يوم القيامة .

قلت له :

ـ دعني أصحح معلوماتك أولا . . فقد بنيت أسئلتك على مقدمة خاطئة . . فالله أخبرنا بأنه لم يحرم أحدا من رحمته ووحيه وكلماته وآياته .

﴿وان من أمة الا خلا فيها نذير﴾ ٢٤ ـ فاطر

﴿ولقد بعثنا في كل امة رسولا﴾ ٣٦ ـ النحل

والرسل الذين جاء ذكرهم في القرآن ليسوا كل الرسل .

وانما هناك آلاف غيرهم لا نعلم عنهم شيئا . . والله يقول لنبيه عن الرسل :

﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ ٧٨ ـ غافر

والله يوحي الى كل شي ء حتى النحل .

﴿واوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون﴾ ٦٨ ـ النحل .

وقد يكون الوحي كتابا يلقيه جبريل . . وقد يكون نورا يلقيه الله في قلب العبد . . وقد يكون إنشراحا في الصدر . . وقد يكون حكمة وقد يكون حقيقة وقد يكون فهما وقد يكون خشوعا ورهبة وتقوى .

وما من أحد يرهف قلبه ويرهف سمعه الا ويتلقى من الله فضلا .

أما الذين يصمون آذانهم وقلوبهم فلا تنفعهم كتب ولا رسل ولا معجزات ولو كثرت .

والله قال انه يختص برحمته من يشاء . . وانه لا يسأل عما يفعل .

وقد يريد الله لحكمة يعلمها أن ينذر أحدا وأن يعذر آخر فيقبل منه أهون الايمان .

ومن يدرينا . . ربما كانت مجرد لفتة من ذلك الزنجي البدائي الى السماء في رهبة هي عند الله منجية ومقبولة أكثر من صلاتنا .

على أن القراءة المتأملة لأديان هؤلاء الزنوج البدائيين تدل على أنه كان لهم رسل ورسالات سماوية مثل رسالاتنا .

في قبيلة الماو ماو مثلا نقرأ أنهم يؤمنون باله يسمونه « موجابي » ويصفونه بأنه واحد أحد لم يلد ولم يولد وليس له كفو ولا شبيه . . وانه لا

يرى ولا يعرف الا من آثاره وأفعاله . . وانه خالق رازق وهاب رحيم يشفي المريض وينجد المأزوم وينزل المطر ويسمع الدعاء ويصفونه بأن البرق خنجره والرعد وقع خطاه .

أليس هذا الـ « موجابي » هو إلهنا بعينه . ومن أين جاءهم هذا العلم الا أن يكون في تاريخهم رسول ومبلغ جاء به . . ثم تقادم عليه العهد كالمعتاد فدخلت الخرافات والشعوذات فشوهت هذا النقاء الديني .

وفي قبيلة نيام نيام نقرأ أنهم يؤمنون بإله واحد يسمونه « مبولي » ويقولون أن كل شيء في الغابة يتحرك بإرادة « مبولي » وأنه يسلط الصواعق على الأشرار من البشر . . ويكافىء الاخيار بالرزق والبركة والامان .

وفي قبيلة الشيلوك يؤمنون باله واحد يسمونه « جوك » ويصفونه بأنه خفي وظاهر . . وانه في السماء وفي كل مكان وانه خالق كل شي ء .

وفي قبيلة الدنكا يؤمنون باله واحد يسمونه « نيالاك » وهي كلمة ترجمتها الحرفية . . الذي في السماء . . أو الاعلى .

ماذا نسمي هذه العقائد الا أنها اسلام .

وماذا تكون إلا رسالات كان لها في تاريخ هؤلاء الاقوام رسل .

ان الدين لواحد .

﴿ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ٦٢ ـ البقرة .

حتى الصابئين الذين عبدوا الشمس على أنها آية من آيات الله وآمنوا بالله الواحد وبالآخرة والبعث والحساب وعملوا الصالحات فلهم أجرهم عند ربهم .

ومعلوم أن رحمة الله تتفاوت .

وهناك من يولد أعمى وهناك من يولد مبصرا وهناك من عاش أيام موسى ورآه رأي العين وهو يشق البحر بعصاه . . وهناك من عاش أيام المسيح ورآه يحيي الموتى . . أما نحن فلا نعلم عن هذه الآيات الا سمعا . . وليس الخبر كالعيان . . وليس من رأى كمن سمع .

ومع ذلك فالايمان وعدمه ليس رهنا بالمعجزات .

والمكابرون المعاندون يرون العجب من أنبيائهم فلا يزيد قولهم على أن هذا « سحر مفتري » .

ولا شك أن صاحبنا الدكتور القادم من فرنسا قد بلغه من الكتب ثلاثة . . توراة وانجيل وقرآن وبلغته . . فلم تزده هذه الكتب الا اغراقا في الجدل . . وحتى يهرب من الموقف كله احاله على شخص مجهول في الغابات لم ينزل عليه كتاب . . وراح يسألنا . . وما بالكم بهذا الرجل الذي لم يصله قرآن ولم ينزل عليه كتاب . . ملتمسا بذلك ثغرة في العدل الالهي أو موهما نفسه بأن المسألة كلها عبث .

وهو لذلك يسألنا « ولماذا تتفاوت رحمة الله » . . لماذا يشهد الله واحدا على آياته . . ولا يدري آخر بتلك الآيات الا سمعا .

ونحن نقول انها قد لا تكون رحمة بل نقمة ألم يقل الله لأتباع المسيح

الذين طلبوا نزول مائدة من السماء محذرا :

﴿اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني اعذبه عذابا لا اعذبه احدا من العالمين﴾ ١٥ ـ المائدة .

ذلك لانه مع نزول المعجزات يأتي دائما تشديد العذاب لمن يكفر .

وطوبى لمن آمن بالسماع ودون ان يرى معجزة .

والويل للذين شاهدوا ولم يؤمنوا .

فالقرآن في يدك حجة عليك ونذير . . ويوم الحساب يصبح نقمة لا رحمة .

وعدم اقامة هذه الحجة البينة على الاسكيمو ساكن القطبين قد يكون اعفاء وتخفيفا ورحمة ومغفرة يوم الحساب . . وقد تكون لفتة الى السماء من هذا الاسكيمو الجاهل ذات ساعة في عمره . . عند الله كافية لقبوله مؤمنا مخلصا .

أما لماذا يرحم الله واحدا أكثر مما يرحم آخر فهو أمر يؤسسه الله على علمه بالقلوب .

﴿فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾ ١٨ ـ الفتح

وعلم الله بنا وبقلوبنا يمتد الى ما قبل نزولنا في الارحام حينما كنا عنده أرواحا حول عرشه . . فمنا من التف حول نوره . . ومنا من انصرف عنه مستمتعا بالملكوت وغافلا عن جمال خالقه . . فاستحق الرتبة

الدنيا من ذلك اليوم وسبق عليه القول . . هذا كلام أهل المشاهدة .

وما نراه من تاريخنا القصير في الدنيا ليس كل شيء .

ومعرفة الحكمة من كل ألم وحرمان أمر لا يعلمه الا العليم .

والذي يسألني . . لماذا خلق الله الخنزير خنزيرا . . لا أملك الا أن أجيبه بأن الله اختار له ثوبا خنزيريا لان نفسه خنزيرية وأن خلقه هكذا حق وعدل .

وكل ما نرى حولنا من استحقاقات هي عدل لكن معرفة الحكمة الكلية واماطة اللثام عن هذا العدل أمر ليس في مقدور كل واحد .

ولعل لهذا السبب هناك آخرة . . ويوم تنصب فيه الموازين وينبئنا العليم بكل ما اختلفنا فيه .

ومع هذا فسوف أريحك بالكلمة الفصل . . فقد قال الله في كتابه أنه لن يعذب الا من أنذرهم بالرسل .

﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ ١٥ ـ الاسراء

هل أرحت واسترحت .

ثم دعني أقول لك يا صاحبي

ان أعجب ما في سؤالك أن ظاهره يوهم بالايمان والاشفاق على الزنجي المسكين الذي فاته ما في القرآن من نور ورحمة وهدى . . مع ان حقيقتك هي الكفر بالقرآن وبنوره ورحمته وهداه . . فسؤالك أقرب ما

يكون الى الاستدراج والمخادعة وفيه مناقضة للنفس هي « اللكاعة » بعينها . . فأنت تحاول أن تقيم علينا حجة هي عندك ليس لها أي حجة .

ألا ترى معي يا صاحبي أن جهاز المنطق عندك في حاجة الى اصلاح .

● الجنة والنار

كان صديقنا الدكتور واثقا من نفسه كل الثقة هذه المرة وهو يلوك الكلمات ببطء ليلقي بالقنبلة ـ كيف يعذبنا الله وهو الرحمن الرحيم على ذنب محدود في الزمن بعذاب لا محدود في الابد (النار خالدين فيها ابدا) ومن نحن وماذا نساوي بالنسبة لعظمة الله حتى ينتقم منا هذا الانتقام . . وما الانسان الا ذرة أو هبأة في الكون وهو بالنسبة لجلال الله أهون من ذلك بكثير . . بل هو اللاشيء بعينه .

ونحن نصحح معلومات الدكتور فنقول :

أولا ـ اننا لسنا ذرة ولا هبأة في الكون . . وان شأننا عند الله ليس هينا بل عظيما . . ألم ينفخ فينا من روحه . . ألم يسجد لنا الملائكة . . ألم يعدنا بميراث السموات والارض ويقول عنا :

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ ٧٠ ـ الاسراء

ان فينا اذن من روح الله .

ونحن بالنسبة للكون لسنا ذرة ولا هبأة . . اننا نبدو بالنظر الى أجسادنا كذرة أو هبأة بالنسبة للكون الفسيح الواسع .

ولكن الا نحتوي على هذا الكون ونستوعبه بعقلنا وندرك قوانينه وأفلاكه ونرسم لكل كوكب مداره . . ثم ينزل رائد الفضاء على القمر

فيكتشف ان كل ما استوعبناه بعقلنا على الارض كان صحيحا . . وكل ما رسمناه كان دقيقا .

ألا يدل هذا على أننا بالنظر الى روحنا أكبر من الكون وأننا نحتوي عليه . . وان الشاعر كان على حق حينما خاطب الانسان قائلا :

وتحسب انك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الاكبر

وان الانسان كما يقول الصوفية هو الكتاب الجامع والكون صفحاته .

اذن فالانسان عظيم الشأن كبير الخطر .

وهو من روح الله .

وأعماله تستوجب المحاسبة .

أما عن الذنب المحدود في الزمان الذي يحاسبنا الله عليه بعذاب لا محدود في الابد . . فمغالطة اخرى وقع فيها الدكتور العزيز الواثق من نفسه .

فالله يقول عن هؤلاء المخلدين في النار حينما يطلبون العودة الى الدنيا ليعملوا غير ما عملوا . . يقول سبحانه :

﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون﴾ ٢٨ ـ الانعام

أي ان ذنبهم ليس ذنبا محدودا في الزمان . . بل هو خصلة ثابتة سوف تتكرر في كل زمان . . ولو ردوا لعادوا الى ذنبهم وانهم لكاذبون .

هي اذن صفة مؤبدة في النفس وليست سقطة عارضة في ظرف عارض في الدنيا .

وهو يقول عنهم في مكان آخر :

﴿يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على شيء . . الا انهم هم الكاذبون﴾ ١٨ ـ المجادلة .

هنا لون آخر من الاصرار والتحدي يصل الى أنهم يواجهون الله بالكذب والحلف الكذب وهم بين يديه يوم الموقف العظيم يوم ترفع الحجب وينكشف الغطاء . . وهذا غاية الجبروت والصلف .

ولسنا هنا أمام ذنب محدود في الزمان .

بل أمام ذنب مستمر في الزمان ويعد أن يطوي الزمان وكل زمان . . نحن هنا أمام نفس تحمل معها شرها الابدي .

ومن هنا كان تأبيد العذاب لهذه النفس عدلا .

ولهذا تقول عنهم الآية في صراحة :

﴿وما هم بخارجين من النار﴾ ١٦٧ ـ البقرة .

ويقول ابن عربي : ان الرحمة بالنسبة لهؤلاء انهم سوف يتعودون على النار . . وتصبح تلك النار في الآباد المؤبدة بيئتهم الملائمة .

ولا شك ان هناك مجانسة بين بعض النفوس المجرمة وبين النار . . فبعض تلك النفوس هي في حقيقتها شعلة حسد وحقد وشهوة وغيرة وغل وضرام من الغضب والنقمة والثورة والمشاعر الاجرامية المحتدمة وكأنها نار

بالفعل .

مثل تلك النفوس لا تستطيع أن تعيش في سلام . . ولا تستطيع أن تحيا ساعة دون أن تشعل حولها حربا . . ودون ان تضرم حولها النيران . . لان النيران هي بيئتها وطبيعتها .

ومثل تلك النفوس يكون قرارها في النار هو الحكم العدل ويكون هذا المصير من قبيل وضع الشيء في مكانه . . فلو أنها أدخلت الجنة لما تذوقتها .

الم تكن ترفض السلام في الارض ؟

وينبغي أن نفهم النار والجنة في الآخرة فهما واسع الافق . . فالنار في الآخرة ليست شواية . وليس ما يجري فيها هو الحريق بالمعنى الدنيوي فالله يقول ان المذنبين في النار يتكلمون ويتلاعنون وان النار فيها شجرة لها ثمر . . هي شجرة الزقوم التي تخرج من أصل الجحيم . . كما أن فيها ماء حميما يشرب منه المعذبون .

مثل تلك النار التي فيها شجرة وفيها ماء . . ويتكلم فيها الناس لا بد انها نار غير النار :

﴿كلما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ ٣٧ ـ ٣٨ الاعراف

انهم يتكلمون وهم في النار وهي نار :

﴿وقودها الناس والحجارة﴾ ٢٤ ـ البقرة .

هذه النار اذن هي من قبيل الغيب . . وما ورد عنها اشارات .

ولا يجب ان يفهم من هذا الكلام اننا ننكر العذاب الحسي ونقول بالعذاب المعنوي . . فان العذاب الحسي صريح لا يجوز الشك فيه ونحن نؤمن بوجوده . وانما نقول ان تفاصيل هذا العذاب وكيفيته . . كما ان كيفية تلك النار وأوصافها التفصيلية . . هي غيب مجهول . . فهي على ما يبدو في الاشارات القرآنية . . نار غير النار . . كما أن أجسامنا في تحملها لتلك النار هي غير الاجسام الترابية الهشة التي لنا الآن . . .

ونفس الشيء في الجنة . . فهي ليست سوق خضار وبلح ورمان وعنب . . وانما تلك الاوصاف القرآنية هي مجرد اشارات وضرب أمثلة وتقريب الى الاذهان .

﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه﴾ ١٥ ـ محمد

« مثل الجنة » . . أي أننا نضرب مثلا يقرب فهم الجنة اليك ولكن الحقيقة أن التفاصيل غيب .

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ ١٧ ـ السجدة

﴿جنة عرضها السموات والارض﴾ ١٣٣ ـ آل عمران

فهي لا يمكن أن تكون مجرد حديقة .

﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ ٣٢ ـ الواقعة

فهي غير فاكهتنا المقطوعة والممنوعة . . وخمر :

﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾

فهي غير خمرنا التي تصدع الرأس وتنزف العقل ويقول القرآن عن أهل الجنة :

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ ٤٣ ـ الاعراف

ها هنا نفوس طهرت بطريقة لا نعلمها .

الجنة اذن هي الاخرى غيب وليس في هذا الكلام أي انكار للنعيم الحسي فنحن نؤمن بأن الجنة نعيم حسي ومعنوي معا كما ان النار عذاب حسي ومعنوي ولكن ما نريد تأكيده أن تفاصيل هذا النعيم أو العذاب وكيفياته غيب . وأن الجنة ليست سوقا للفاكهة والخضار ولا النار فرنا لشوي اللحوم .

وان التعذيب في الآخرة ليس تجبرا من الله على عباده وانما هو تطهير وتعريف وتقويم ورحمة .

﴿ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم﴾ ١٤٧ ـ النساء

فالاصل هو عدم العذاب .

والله لا يعذب العارف المؤمن وانما ينصب عذابه على الجاحد المنكر الذي فشلت معه كل وسائل الهداية والتعريف والتفهيم .

﴿ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون﴾ ٢١ ـ السجدة

سنة الله أن يذيق هؤلاء من العذاب الاصغر في الدنيا لايقاظهم من غفلتهم ولازعاجهم من هذا الصمم والسبات . . « لعلهم يرجعون »

فاذا لم تفلح كل هذه الوسائل . . وظل المنكر على انكاره لم يبق الا مواجهته بالعذاب الحق لتعريفه . . والتعريف بالحق هو عين الرحمة . . ولو أن الله تركهم على عماهم وجهلهم وأهملهم لكان في حقه ظلما . . سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا . . فالعرض على النار بالنسبة لهؤلاء الجهال . . عناية . وكل أفعال الله رحمة . .

يرحم الجاهل بالجحيم تأديبا وتعليما .

ويرحم العارف بالجنة فضلا وكرامة .

﴿عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾ ١٥٦ ـ الاعراف

فجعل رحمته تسع كل شيء حتى العذاب .

ثم دعونا نسأل الدكتور . . أيكون الله اكثر عدلا في نظره لو أنه ساوى بين الظالمين والمظلومين وبين السفاحين وضحاياهم فقدم للكل حفلة شاي في الآخرة .

وهل العدل في نظر الدكتور أن يستوي الابيض والاسود .

وللذين يستبعدون على الله أن يعذب نقول : ألا يعذبنا الله بالفعل في دنيانا ؟ . . وماذا تكون الشيخوخة والمرض والسرطان الا العذاب بعينه .

ومن خالق الميكروب . . ؟!!

اليست جميعها انذارات بأننا أمام إله يمكن أن يعذب .

● هل الدين أفيون ؟

قال لي صاحبي الدكتور وهو يغمز بعينيه :

ـ وما رأيك في الذين يقولون ان الدين أفيون وانه يخدر الفقراء والمظلومين ليناموا على ظلمهم وفقرهم ويحلموا بالجنة والحور العين . . بينها يثبت الاغنياء على غناهم باعتبار أنه حق وأن الله خلق الناس درجات ؟

وما رأيك في الذين يقولون ان الدين لم ينزل من عند الله وانما طلع من الارض من الظروف والدواعي الاجتماعية ليكون سلاحا لطبقة على طبقة ؟

وهو يشير بذلك الى الماديين وأفكارهم .

قلت :

ـ ليس أبعد من الخطأ القائل بأن الدين أفيون . . فالدين في حقيقته أعباء وتكاليف وتبعات وليس تخففا وتحللا وبالتالي ليس مهربا من المسؤوليات وليس أفيونا .

وديننا عمل وليس كسلا .

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾ ١٠٥ ـ التوبة

ونحن نقول بالتوكل وليس بالتواكل .

والتوكل يقتضي عندنا العزم واستفراغ الوسع وبذل غاية الطاقة

والحيلة ثم التسليم بعد ذلك لقضاء الله وحكمه .

﴿فاذا عزمت فتوكل على الله﴾ ١٥٩ ـ آل عمران
العزم اولا .

والنبي يقول لمن يريد ان يترك ناقته سائبة توكلا على حفظ الله . . « اعقلها وتوكل » . . أي ابذل وسعك أولا فثبتها في عقالها ثم توكل .

والدين صحو وانتباه ويقظة ومحاسبة للنفس ومراقبة للضمير في كل فعل وفي كل كلمة وكل خاطر وليس هذا حال آكل الافيون .

انما آكل الافيون الحقيقي هو المادي الذي ينكر الدين هربا من تبعاته ومسؤ ولياته ويتصور أن لحظته ملكه وانه لا حسيب ولا رقيب ولا بعث بعد الموت فيفعل ما يخطر على باله . وأين هذا الرجل من المتدين المسلم الذي يعتبر نفسه مسؤ ولاً عن سابع جار . . واذا جاع فرد في أمته أو ضربت دابة عاتب نفسه بأنه لم يقم بواجب الدين في عنقه .

وليس صحيحا أن ديننا خرج من الارض . . من الظروف والدواعي الاجتماعية ليكون سلاحا لطبقة على طبقة وتثبيتا لغنى الاغنياء وفقر الفقراء .

والعكس هو الصحيح . . فالاسلام جاء ثورة على الاغنياء والكانزين المال والمستغلين والظالمين . فأمر صراحة بأن لا يكون المال دولة بين الاغنياء يحتكرونه ويتداولونه بينهم وانما يكون حقا للكل .

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ ٣٤ ـ التوبة

والانفاق يبدأ من زكاة اجبارية ٢,٥ فـي المائة . . ثم يتصاعد اختياريا الى كل ما في الجيب وكل ما في اليد فلا تبقى لنفسك الا خبزك كفافك .

﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ ٢١٩ ـ البقرة

والعفو هو كل ما زاد عن الكفاف والحاجة .

وبهذا جمع الاسلام بين التكليف الجبري القانوني والتكليف الاختياري القائم على الضمير ، وهذا أكرم للانسان من نزع إملاكه بالقهر والمصادرة .

ووصل بالانفاق الى ما فوق التسعين في المائة دون ارهاق .

ولم يأت الاسلام ليثبت ظلم الظالمين بل جاء ثورة صريحة على كل الظالمين وجاء سيفا وحربا على رقاب الطواغيت والمستبدين .

أما التهمة التي يسوقها الماديون بأن الدين رجعي وطبقي بدليل الآيات :

﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ ٧١ ـ النحل

﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ ٣٢ ـ الزخرف

فنحن نرد بأن هذه الآيات تنطبق على لندن وباريس وبرلين وموسكو بمثل ما تنطبق على القاهرة ودمشق وجدة ، واذا مشينا في شوارع موسكو فسوف نجد من يسير على رجليه . ومن يركب بسكليت . ومن يركب عربة موسكو فتش . ومن يركب عربة زيم فاخرة . . وماذا يكون

هذا الا التفاضل في الرزق بعينه والدرجات والرتب الاقتصادية .

والتفاوت بين الناس حقيقة جوهرية .

ولم تستطع الشيوعية أن تلغي التفاوت .

ولم يقل حتى غلاة المادية والفوضوية بالمساواة .

والمساواة غير ممكنة فكيف نساوي بين غير متساويين .

الناس يولدون من لحظة الميلاد غير متساوين في الذكاء والقوة والجمال والمواهب . . يولدون على درجات في كل شيء .

وأقصى ما طمعت فيه المذاهب الاقتصادية هي المساواة في الفرص وليس المساواة بين الناس . . ان يلقي كل واحد نفس الفرصة في التعليم والعلاج والحد الادنى للمعيشة . . وهو نفس ما تحض عليه الاديان . . أما الغاء الدرجات والغاء التفاوت فهو الظلم بعينه والامر الذي ينافي الطبيعة . والطبيعة تقوم كلها على أساس التفاضل والتفاوت والتنوع في ثمار الارض وفي البهائم وفي الناس .

في القطن نجد طويل التيلة وقصير التيلة وجيزة ٧ وسكلاريدس وفولي جود فير . . في البلح نجد الزغلول والسماني والحياني . . وفي العنب نجد البناتي والفيومي والازمرلي .

وفي الحيوان والانسان نجد الرتب والدرجات والتفاوت أكثر .

هذا هو قانون الوجود كله . . التفاضل .

وحكمة هذا القانون واضحة . . فلو كان جميع الناس يولدون بخلقة واحدة وقالب واحد . . ونسخة واحدة . . لما كان هناك داع

لميلادهم أصلا . . وكان يكفي أن تأتي نسخة واحدة فتغني عن الكل . . وكذلك الحال في كل شي ء . . ولانتهى الامر الى فقر الطبيعة وافلاسها .

وانما غنى الطبيعة وخصبها لا يظهر الا بالتنويع في ثمارها وغلاتها والتفاوت في ثمارها .

ومع ذلك فالدين لم يسكت على هذا التفاوت بين الاغنياء والفقراء بل أمر بتصحيح الاوضاع وجعل للفقير نصيبا في مال الغني . . وقال ان هذا التفاوت فتنة وامتحان .

﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة اتصبرون﴾ ٢٠ ـ الفرقان

سوف نرى ماذا يفعل القوي بقوته . هل ينجد بها الضعفاء أم يضرب ويقتل ويكون جبارا في الارض . . وسوف نرى ماذا يفعل الغني بغناه . . هل يطغي ويسرف . . أم يعطف ويحسن وسوف نرى ماذا يفعل الفقر بفقره . . هل يحسد ويحقد ويسرق ويختلس . . أم يعمل ويكد ويجتهد ليرفع مستوى معيشته بالشرع والعدل .

وقد أمر الدين بالعدل وبتصحيح الاوضاع وبالمساواة بين الفرص . . وهدد بعذاب الآخرة ، وقال بأن الآخرة ستكون أيضا درجات أكثر تفاوتا لتصحح ما لم يجر تصحيحه في الأرض .

﴿وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا﴾ ٢١ ـ الاسراء

وللذين يتهمون الاسلام بالرجعية السياسية نقول ان الاسلام أتى بأكثر الشرائع تقدمية في نظم الحكم .

احترام الفرد في الاسلام بلغ الذروة . . وسبق ميثاق حقوق

الانسان وتفوق عليه . . فماذا يساوي الفرد الواحد في الاسلام انه يساوي الانسانية كلها .

﴿من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا﴾ ٣٢ - المائدة

لا تغني المنجزات ولا الاصلاحات المادية ولا التعمير ولا السدود ولا المصانع . . اذا قتل الحاكم فردا واحدا ظلما في سبيل هذا الاصلاح ، فانه يكون قد قتل الناس جميعا .

ذروة في احترام الفرد لم يصل اليها مذهب سياسي قديم أو جديد . . فالفرد في الاسلام له قيمة مطلقة بينما في كل المذاهب السياسية له قيمة نسبية . . والفرد في الاسلام آمن في بيته . . وفي أسراره « لا تجسس ولا غيبة » آمن في ماله ورزقه وملكيته وحريته .

كل شيء حتى التحية حتى افساح المجلس حتى الكلمة الطيبة لها مكان في القرآن .

وقد نهى القرآن عن التجبر والطغيان والانفراد بالحكم .

وقال الله للنبي « وهو من هو في كماله وصلاحياته » .

﴿وما انت عليهم بجبار﴾ ٤٥ - ق

﴿فذكر انما انت مذكر . . لست عليهم بمسيطر﴾ ٢١ - الغاشية

﴿انما المؤمنون اخوة﴾ ١٠ - الحجرات

ونهى عن عبادة الحاكم وتأليه العظيم :

﴿لا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله﴾ ٦٤ ـ آل عمران
﴿وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه﴾ ٢٣ ـ الاسراء

ونهى عن الغوغائية وتملق الدهماء والسوقة والجري وراء الاغلبية المضللة وقال ان :

﴿اكثر الناس لا يعلمون﴾ ٢١ ـ يوسف
﴿بل اكثرهم لا يعقلون﴾ ٦٣ ـ العنكبوت
﴿اكثر الناس لا يؤمنون﴾ ٥٩ ـ غافر
﴿ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون﴾ « يكذبون » ١١٦ ـ الانعام
﴿ان هم الا كالانعام بل هم اضل﴾ ٤٤ ـ الفرقان

ونهى عن العنصرية والعرقية :

﴿ان اكرمكم عند الله اتقاكم﴾ ١٣ ـ الحجرات
﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ ١٨٩ ـ الاعراف

وبالمعنى العلمي كان الاسلام تركيبا جدليا جامعا بين مادية اليهودية وروحانية المسيحية ، بين العدل الصارم الجاف الذي يقول : السن بالسن والعين بالعين . وبين المحبة والتسامح المتطرف الذي يقول : من ضربك على خدك الايمن فأدر له الايسر .

وجاء القرآن وسطا بين التوراة التي حرفت حتى أصبحت كتابا ماديا ليس فيه حرف واحد عن الآخرة ، وبين الانجيل الذي مال الى رهبانية تامة ، ونادى القرآن بناموس الرحمة الجامع بين العدل والمحبة فقال بشرعية الدفاع عن النفس ولكنه فضل العفو والصفح والمغفرة .

﴿ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور﴾ ٤٣ ـ الشورى

وإذا كانت الرأسمالية أطلقت للفرد حرية الكسب الى درجة استغلال الآخرين . . وإذا كانت الشيوعية سحقت هذه الحرية تماما . . فان الاسلام قدم الحل الوسط .

﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ ٣٢ ـ النساء

الفرد حر في الكسب ولكن ليس له أن يأخذ ثمرة أرباحه كلها . . وانما له فيها نصيب . . وللفقير نصيب يؤخذ زكاة وانفاقا من ٢,٥ في المائة الى ٩٠٪ جبرا واختيارا . . وهذا النصيب ليس تصدقا وتفضلا وانما هو حق الله في الربح . . وبهذه المعادلة الجميلة حفظ الاسلام للفرد حريته وللفقير حقه .

ولهذا أصاب القرآن كل الصواب حينما خاطب امة الاسلام قائلا :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ ١٤٣ ـ البقرة .

فقد اختار الاسلام الوسط العدل في كل شيء .

وهو ليس الوسط الحسابي وانما الوسط الجدلي او التركيب الذي يجمع النقيضين (اليمين واليسار) ويتجاوزهما ويزيد عليهما . . ولذلك ليس في الاسلام يمين ويسار وانما فيه « صراط » الاعتدال الوسط الذي نسميه الصراط المستقيم من خرج عنه باليمين او اليسار فقد انحرف .

ولم يقيدنا القرآن بدستور سياسي محدد أو منهج مفصل للحكم لعلم

الله بأن الظروف تتغير بما يقتضي الاجتهاد في وضع دساتير متغيرة في الازمنة المتغيرة ، وحتى يكون الباب مفتوحا امام المسلمين للأخذ والعطاء من المعارف المتاحة في كل عصر دون انغلاق على دستور بعينه .

ولهذا اكتفى القرآن بهذه التوصيات السياسية العامة السالفة كخصائص للحكم الامثل . . ولم يكبلنا بنظرية وهذا سر من أسرار اعجازه وتفوقه وليس فقرا ولا نقصا فيه .

وتلك لمسة أخرى من تقدمية القرآن التي سبقت كل التقدميات .

ونرد على القائلين بأن الدين جمود وتحجر . . بأن الاسلام لم يكن أبدا دين تجمد وتحجر وانما كان دائما وأبدا دين نظر وفكر وتطوير وتغيير بدليل آياته الصريحة .

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ ٢٠ ـ العنكبوت

﴿فلينظر الانسان مم خلق . . خلق من ماء دافق . . يخرج من بين الصلب والترائب﴾ ٧ ـ الطارق

﴿افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت﴾ ١٩ ـ الغاشية

اوامر صريحة بالنظر في خلق الانسان وفي خلق الحيوان وفي خلق الجبال وفي طبقات الارض وفي السماء وأفلاكها . . وهي نظرات تضم كل ما نعنيه الآن بعلم الجيولوجيا والفلك والتشريح والفسيولوجيا والبيولوجيا وعلم الاجنة .

أوامر صريحة بالسير في الارض وجمع الشواهد واستنباط الاحكام

والقوانين ومعرفة كيف بدأ الخلق . . وهو ما نعرفه الآن بعلوم التطور .

ولا خوف من الخطأ .

فالاسلام يكافىء الذي يجتهد ويخطىء بأجر والذي يجتهد ويصيب بأجرين .

وليس صحيحا ما يقال من أننا تخلفنا بالدين وتقدم الغرب بالالحاد . . والحق أننا تخلفنا حينما هجرنا أوامر ديننا . وحينما كان المسلمون يأتمرون بهذه الآيات حقا كان هناك تقدم وكانت هناك دولة من المحيط الى الخليج وعلماء مثل ابن سينا في الطب وابن رشد في الفلسفة وابن الهيثم في الرياضيات وابن النفيس في التشريح وجابر بن حيان في الكيمياء .

وكانت الدنيا تأخذ عنا علومنا . . وما زالت مجمعات النجوم وأبراجها تحتفظ الى الآن بأسمائها العربية في المعاجم الاوروبية . . وما زالوا يسمون جهاز التقطير بالفرنسية imbique ومنه الفعل من كلمة أمبيق العربية . imbiquer ولم يتقدم الغرب بالالحاد بل بالعلم .

وانما وقع الخلط مما حدث في العصور الوسطى من طغيان الكنيسة ومحاكم التفتيش وحجرها على العام والعلماء وما حدث من سجن غاليليو وحرق جيوردانو برونو .

حينما حكمت الكنيسة وانحرف بها البابوات عن أهدافها النبيلة فكانت عنصر تأخر . . فتصور النقاد السطحيون ان هذا ينسحب أيضا على الاسلام وهو خطأ . . فالاسلام ليس فيه بابوية ولا كهنوت . . والله

لم يقم بينه وبين المسلمين أوصياء ولا وسطاء .

وحينما حكم الاسلام بالفعل كان عنصر تقدّم كما شرحنا وكما يقول التاريخ مكذبا هذه المزاعم السطحية .

وآيات القرآن الصريحة تحض على العلم وتأمر بالعلم ولا تقيم بين العلم والدين اي تناقض :

﴿وقل رب زدني علما﴾ ١١٤ ـ طه

﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ ٩ ـ الزمر

﴿شهد الله انه لاإلـه الا هو والملائكة واولو العلم﴾ ١٨ ـ آل عمران

جعل الله الملائكة وأولى العلم في الآية مقترنين بشرف اسمه ونسبته .

وأول آية في القرآن وأول كلمة كانت « اقرأ » والعلماء في القرآن موعودون بأرفع الدرجات :

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات﴾ ١١ ـ المجادلة

وتتكرر كلمة العلم ومشتقاته في القرآن نحوا من ثمانمائة وخمسين مرة .

فكيف يتكلم بعد هذا متكلم عن تناقض بين الدين والعلم أو حجر من الدين على العلم .

والنظر في الدين وتطوير فهمه مطلوب ، وتاريخ الاسلام كله

حركات أشياء وتطوير . . والقرآن بريء من تهمة التحجير على الناس وكل شيء في ديننا يقبل التطوير . . ما عدا جوهر العقيدة وصلب الشريعة . . لان الله واحد ولن يتطور الى اثنين او ثلاثة . . هذا أمر مطلق . . وكذلك الشر شر والخير خير . . لن يصبح القتل فضيلة ولا السرقة حسنة ولا الكذب حلية يتحلى بها الصالحون .

وفيما عدا ذلك فالدين مفتوح للفكر والاجتهاد والاضافة والتطوير .

وجوهر الاسلام عقلاني منطقي يقبل الجدل والحوار ويحض على استخدام العقل والمنطق .

وفي أكثر من مكان وفي أكثر من صفحة في القرآن نعثر على التساؤل . . « أفلا يعقلون » . . « أفلا يفقهون » .

وأهل الدين عندنا هم « أولو الالباب » .

﴿شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ ٢٢ ـ الانفال

﴿افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾ ٤٦ ـ الحج

احترام العقل في لب وصميم الديانة .
والايجابية عصبها والثورة روحها .
لم يكن الاسلام أبدا خانعا ولا سلبيا .

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ ١٩٠ ـ البقرة

﴿ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾
٤ ـ الصف

والجهاد بالنفس والمال والاولاد . . والقتال والثبات وعدم النكوص على الاعقاب . ومواجهة اليأس والمصابرة والمرابطة في صلب ديننا .

فكيف يمكن لدين بهذه المرونة والعقلانية والعلمية والايجابية والثورة ان يتهم بالتحجر والجمود الا من صديق عزيز مثل الدكتور القادم من فرنسا لا يعرف من أوليات دينه شيئا ولم يقرأ في قرآنه حرفا .

● وحكاية الإسلام مع المرأة

قال صديقي الدكتور :

ـ ألا توافقني أن الاسلام كان موقفه رجعيا من المرأة ؟ ويبدأ يعد على أصابعه

ـ حكاية تعدد الزوجات وبقاء المرأة في البيت . . والحجاب والطلاق في يد الرجل . . والضرب والهجر في المضاجع . . وحكاية ما ملكت ايمانكم ، وحكاية الرجال قوامون على النساء ونصيب الرجل المضاعف في الميراث .

قلت له وأنا أستجمع نفسي :

التهم هذه المرة كثيرة . . والكلام فيها يطول . . ولنبدأ من البداية . . من قبل الاسلام . . وأظنك تعرف تماما أن الاسلام جاء على جاهلية ، والبنت التي تولد نصيبها الوأد والدفن في الرمل ، والرجل يتزوج العشرة والعشرين ويكره جواريه على البغاء ويقبض الثمن . . فكان ما جاء به الاسلام من اباحة الزواج بأربع تقييدا وليس تعديدا . . وكان انقاذا للمرأة من العار والموت والاستعباد والمذلة .

وهل المرأة الآن في أوروبا أسعد حالا في الانحلال الشائع هناك وتعدد العشيقات الذي أصبح واقع الامر في أغلب الزيجات

أليس أكرم للمرأة أن تكون زوجة ثانية لمن تحب . . لها كافة حقوق الزوجة واحترامها من أن تكون عشيقة في السر تختلس المتعة من وراء الجدران .

ومع ذلك فالاسلام جعل من التعدد اباحة شبه معطلة وذلك بأن شرط شرطا صعب التحقيق وهو العدل بين النساء .

(وان خفتم ألا تعدلوا فواحدة) . . (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) ١٢٩ ـ النساء

فنفى قدرة العدل حتى عن الحريص فلم يبق الا من هو أكثر من حريص كالأنبياء والأولياء ومن في دربهم .

أما البقاء في البيوت فهو أمر وارد لزوجات النبي باعتبارهن مثلا عليا .

(وقرن في بيوتكن) ٣٣ ـ الاحزاب

وهي اشارة الى أن الوضع الأمثل للمرأة هي أن تكون أما وربة بيت تفرغ لبيتها ولأولادها .

ويمكن أن نتصور حال أمة نساؤها في الشوارع والمكاتب وأطفالها في دور الحضانة والملاجىء . . أتكون أحسن حالا أو أمة النساء فيها أمهات وربات بيوت والأطفال فيها يتربون في حضانة أمهاتهم والأسرة فيها متكاملة الخدمات .

الرد واضح .

ومع ذلك فالاسلام لم يمنع المقتضيات التي تدعو الى خروج المرأة وعملها . . وقد كانت في الاسلام فقيهات وشاعرات . . وكانت النساء يخرجن في الحروب . . ويخرجن للعلم .

انما توجهت الآية الى نساء النبي كمثل عليا ، وبين المثال والممكن والواقع درجات متعددة .

وقد خرجت نساء النبي مع النبي في غزواته .

وينسحب على هذا أن الخروج لمعونة الزوج في كفاح شريف هو أمر لا غبار عليه .

أما الحجاب فهو لصالح المرأة .

وقد أباح الاسلام كشف الوجه واليدين وأمر بستر ما عدا ذلك .

ومعلوم أن الممنوع مرغوب وأن ستر مواطن الفتنة يزيدها جاذبية .

وبين القبائل البدائية وبسبب العرى الكامل يفتر الشوق تماما وينتهي الفضول ونرى الرجل لا يخالط زوجته الا مرة في الشهر واذا حملت قاطعها سنتين .

وعلى الشواطىء في الصيف حينما يتراكم اللحم العاري المباح للعيون يفقد الجسم العزيان جاذبيته وطرافته وفتنته ويصبح أمرا عاديا لا يثير الفضول .

ولا شك أنه من صالح المرأة أن تكون مرغوبة أكثر وألا تتحول الى شيء عادي لا يثير .

أما حق الرجل في الطلاق فيقابله حق المرأة أيضا على الطرف الآخر فيمكن للمرأة أن تطلب الطلاق بالمحكمة وتحصل عليه اذا أبدت المبررات الكافية .

ويمكن للمرأة أن تشترط الاحتفاظ بعصمتها عند العقد . . وبذلك يكون لها حق الرجل في الطلاق .

والاسلام يعطي الزوجة حقوقا لا تحصل عليها الزوجة في أوروبا ـ فالزوجة عندنا تأخذ مهرا . . وعندهم تدفع دوطة . . والزوجة عندنا لها حق التصرف في أملاكها . . وعندهم تفقد هذا الحق بمجرد الزواج ويصبح الزوج هو القيم على أملاكها .

أما الضرب والهجر في المضاجع فهو معاملة المرأة الناشز فقط . . أما المرأة السوية فلها عند الرجل المودة والرحمة .

والضرب والهجر في المضاجع من معجزات القرآن في فهم النشوز . . وهو يتفق مع أحدث ما وصل اليه علم النفس العصري في فهم المسلك المرضي للمرأة .

وكما نعلم يقسم علم النفس هذا المسلك المرضي الى نوعين :

ـ « المسلك الخضوعي » وهو ما يسمى في الاصطلاح العلمي « ماسوشزم » masochism وهو تلك الحالة المرضية التي تلتذ فيها المرأة بأن تضرب وتعذب وتكون الطرف الخاضع والنوع الثاني هو « المسلك التحكمي » وهو ما يسمى في الاصطلاح العلمي « سادزم » sadism وهو تلك الحالة المرضية التي تلتذ فيها المرأة بأن تتحكم وتسيطر وتتجبر وتتسلط

وتوقع الأذى بالغير . ومثل هذه المرأة لا حل لها سوى انتزاع شوكتها وكسر سلاحها الذي تتحكم به ، وسلاح المرأة أنوثتها وذلك بهجرها في المضجع فلا يعود لها سلاح تتحكم به . . أما المرأة الأخرى التي لا تجد لذتها الا في الخضوع والضرب فان الضرب لها علاج . . ومن هنا كانت كلمة القرآن .

(واهجروهن في المضاجع واضربوهن) ٣٤ ـ النساء

اعجازا علميا وتلخيصا في كلمتين لكل ما أتى به علم النفس في مجلدات عن المرأة الناشز وعلاجها .

أما حكاية « ما ملكت ايمانكم » التي أشار اليها السائل فانها تجرنا الى قضية الرق في الاسلام . . واتهام المستشرقين للاسلام بأنه دعا الى الرق . . والحقيقة أن الاسلام لم يدع الى الرق . . بل كان الدين الوحيد الذي دعا الى تصفية الرق .

ولو قرأنا الانجيل . . وما قاله بولس الرسول في رسائله الى أهل أفسس وما أوصى به العبيد لوجدناه يدعو العبيد دعوة صريحة الى طاعة سادتهم كما الرب .

« أيها العبيد . . أطيعوا سادتكم بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما الرب » .

ولم يأمر الانجيل بتصفية الرق كنظام وانما أقصى ما طالب به كان الأمر بالمحبة وحسن المعاملة بين العبيد وسادتهم .

وفي التوراة المتداولة كان نصيب الأحرار أسوأ من نصيب العبيد . .

ومن وصايا التوراة أن البلد التي تستسلم بلا حرب يكون حظ أهلها أن يساقوا رقيقا وأسارى والتي تدافع عن نفسها بالسيف ثم تستسلم يعرض أهلها على السلاح ويقتل شيوخها وشبابها ونساؤها وأطفالها ويذبحوا تذبيحا .

كان الاسترقاق اذن حقيقة ثابتة قبل مجيء الاسلام وكانت الأديان السابقة توصي بولاء العبد لسيده .

فنزل القرآن ليكون أول كتاب سماوي يتكلم عن فك الرقاب وعتق الرقاب .

ولم يحرم القرآن الرق بالنص الصريح . . ولم يأمر بتسريح الرقيق . . لأن تسريحهم فجأة وبأمر قرآني في ذلك الوقت وهم مئات الآلاف بدون صناعة وبدون عمل اجتماعي وبدون توظيف يستوعبهم كان معناه كارثة اجتماعية وكان معناه خروج مئات الألوف من الشحاذين في الطرقات يستجدون الناس ويمارسون السرقة والدعارة ليجدوا اللقمة . وهو أمر أسوأ من الرق ، فكان الحل القرآني هو قفل باب الرق ثم تصفية الموجود منه . . وكان مصدر الرق في ذلك العصر هو استرقاق الأسرى في الحروب فأمر القرآن بأن يطلق الأسير أو تؤخذ فيه فدية وبأن لا يؤخذ الأسرى أرقاء .

(فأما منا بعد . . وأما فداء) ٤ ـ محمد

فأما أن تمن على الأسير فتطلقه لوجه الله . . وأما تأخذ فيه فدية .

أما الرقيق الموجود بالفعل فتكون تصفيته بالتدرج وذلك بجعل فك

الرقاب وعتق الرقاب كفارة الذنوب صغيرها وكبيرها وبهذا ينتهي الرق بالتدريج .

والى أن تأتي تلك النهاية فماذا تكون معاملة السيد لما ملكت يمينه . . أباح له الاسلام أن يعاشرها كزوجته .

وهذه حكاية « ما ملكت أيمانكم » التي أشار اليها السائل ولا شك أن معاشرة المرأة الرقيق كالزوجة كان في تلك الأيام تكريما لا اهانة .

وينبغي ألا ننسى موقف الاسلام من العبد الرقيق وكيف جعل منه أخا بعد أن كان عبدا يداس بالقدم .

(انما المؤمنون أخوة) ١٠ ـ الحجرات

(هو الذي خلقكم من نفس واحدة) ١٨٩ ـ الأعراف

(لا يتخذ بعضنا بعضا أرباب من دون الله) ٦٤ ـ آل عمران

وقد ضرب محمد عليه الصلاة والسلام المثل حينما تبنى عبدا رقيقا هو زيد بن حارثة فأعتقه وجعل منه ابنه . . ثم زوجه من الحرة سليلة البيت الشريف زينب بنت جحش .

كل هذا ليكسر هذه العنجهية والعصبية . . وليجعل من تحرير العبيد موقفا يقتدى به . . وليقول بالفعل وبالمثال أن رسالته هي عتق الرقاب .

أما أن الرجال قوامون على النساء فهي حقيقة في كل مكان في البلاد الاسلامية . وفي البلاد المسيحية . وفي البلاد التي لا تعرف إلها ولا دينا .

في موسكو الملحدة الحكام رجال من أيام لينين وستالين وخروشوف وبولجانين الى اليوم ، وفي فرنسا الحكام رجال ، وفي لندن الحكام رجال ، وفي كل مكان من الأرض الرجال هم الذين يحكمون ويشرعون ويخترعون ، وجميع الأنبياء كانوا رجالا ، وجميع الفلاسفة كانوا رجالا ، حتى الملحنين « مع أن التلحين صنعة خيال لا يحتاج الى عضلات » رجال ، وكما يقول العقاد ساخرا : حتى صنعة الطهي والحياكة والموضة وهي تخصصات نسائية تفوق فيها الرجال ثم انفردوا بها .

وهي ظواهر لا دخل للشريعة الاسلامية فيها . . فهي ظواهر عامة في كل بقاع الدنيا حيث لا تحكم شريعة اسلامية ولا يحكم قرآن .

انما هي حقائق . . ان الرجل قوام على المرأة بحكم الطبيعة واللياقة والحاكمية التي خصه بها الخالق .

واذا ظهرت وزيرة أو زعيمة أو حاكمة فانها تكون الطرافة التي تروي أخبارها والاستثناء الذي يؤكد القاعدة .

والاسلام لم يفعل أكثر من أنه سجل هذه القاعدة وهذا يفسر لنا بعد ذلك لماذا أعطى القرآن الرجل ضعف النصيب في الميراث . . لأنه هو الذي ينفق ولأنه هو الذي يعول . . ولأنه هو الذي يعمل .

كان موقف الاسلام من المرأة هو العدل .

وكانت سيرة النبي مع نسائه هي المحبة والحدب والحنان . . ألم يؤثر عنه قوله :

« حبب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في

الصلاة » .

فذكر النساء مع الطيب والعطر والصلاة وهذا غاية الأعزاز ، وكان آخر ما قاله في آخر خطبة له قبل موته هو التوصية بالنساء .

واذا كان الله قد اختار المرأة للبيت والرجل للشارع فلأنه عهد الى الرجل أمانة التعمير والبناء والانشاء بينما عهد الى المرأة أمانة أكبر وأعظم هي تنشئة الانسان نفسه .

وانه من الأعظام لشأن المرأة أن تؤتمن على هذه الأمانة . فهل ظلم الاسلام النساء ؟ !! .

● الروح

قال صديقي الدكتور وهو يعلم هذه المرة أن الإشكال سيكون عسيرا .

ـ ما دليلك على أن الانسان له روح وأنه يبعث بعد موت وأنه ليس مجرد الجسد الذي ينتهي الى تراب . . وماذا يقول دينكم في تحضير الأرواح ؟ .

قلت بعد برهة تفكير :

ـ لا شك أن السؤال اليوم صعب والكلام عن الروح ضرب في تيه والحقائق الموجودة قليلة ولكنها مع ذلك في صفنا نحن وليست في صفكم .

ومضت برهة أغرقت فيها في التفكير ثم قلت مردفا :

ـ فكر معي قليلا . . إن أول المؤشرات التي تساعدنا على التدليل على وجود الروح . . أن الانسان ذو طبيعة مزدوجة .

الانسان له طبيعتان :

طبيعة خارجية ظاهرة مشهودة هي جسده تتصف بكل صفات المادة ، فهي قابلة للوزن والقياس متحيزة في المكان متزمنة بالزمان دائمة التغير والحركة والصيرورة من حال الى حال ومن لحظة الى لحظة فالجسد تتداول عليه الأحوال من صحة الى مرض الى سمنة الى هزل الى تورد الى

شحوب الى نشاط الى كسل الى نوم الى يقظة الى جوع الى شبع ، وملحق بهذه الطبيعة الجسدية شريط من الانفعالات والعواطف والغرائز والمخاوف لا يكف لحظة عن الجريان في الدماغ .

ولأن هذه الطبيعة والانفعالات الملحقة بها تتصف بخواص المادة نقول أن جسد الانسان ونفسه الحيوانية هما من المادة .

ولكن هناك طبيعة أخرى مخالفة تماما للأولى ومغايرة لها في داخل الانسان .

طبيعة من نوع آخر تتصف بالسكون واللازمان واللامكان والديمومة . . هي العقل بمعاييره الثابتة وأقيسته ومقولاته . . والضمير بأحكامه ، والحس الجمالي والـ أنا التي تحمل كل تلك الصفات « من عقل وضمير وحس جمالي وحس أخلاقي » .

والـ أنا غير الجسد تماما وغير النفس الحيوانية التي تلتهب بالجوع والشبق .

الـ أنا هي الذات العميقة المطلقة وعن طريق هذه الذات العميقة يشعر الانسان بذلك الشعور العميق بالحضور والكينونة والشخوص والمثول في العالم . . وبأنه هنا وبأنه كان دائما هنا . . وهو شعور ثابت ممتد لا يطرأ عليه التغير لا يسمن ولا يهزل ولا يمرض ولا يتصف بالزمان . وليس فيه ماض وحاضر ومستقبل . . انما هو « آن » مستمر لا ينصرم كما ينصرم الماضي . . وانما يتمثل في شعور بالدوام . . بالديمومة

هنا نوع آخر من الوجود لا يتصف بصفات المادة فلا هو يطرأ عليه

التغير ولا هو يتحيز في المكان أو يتزمن بالزمان ولا هو يقبل الوزن والقياس . . بالعكس نجد أن هذا الوجود هو الثابت الذي نقيس به المتغيرات والمطلق الذي نعرف به كل ما هو نسبي في عالم المادة .

وأصدق ما نصف به هذا الوجود انه روحي وأن طبيعته روحية .

ولنا أن نسأل بعد ذلك .

أي الطبيعتين هي الانسان حقا .

هل الانسان بالحقيقة هو جسده أو روحه .

ولنعرف الجواب علينا أن نبحث أي الطبيعتين هي الحاكمة على الأخرى .

يقول لنا الماديون أن الانسان هو جسده ، وأن الجسد هو الحاكم وأن كل ما ذكرت من عقل ومنطق وحس جمالي وحس أخلاقي وضمير وهذه « التخريفة » التي أسمها الذات أو الـ أنا كل هذا ملحق بالجسد ثانوي عليه تابع له يأتمر بأمره ويقوم على خدمته ويتولى إشباع شهواته وأهوائه .

هذا كلام اخواننا الماديين وهو خطأ ، فالحقيقة أن الجسد تابع وليس متبوعا مأمور وليس آمرا ألا يجوع الجسد فنرفض امداده بالطعام لأننا قررنا أن نصوم هذا اليوم لله . . ألا يتحرك بشهوة فنزجره ؟ !

ألا نصحو في الصباح فيبدأ الجسد تلقائيا في تنفيذ خطة عمل وضعها العقل وصنف بنودها بندا بندا . . من ساعة الى ساعة . من

التابع هنا ومن المتبوع ؟ .

ولحظة التضحية بالنفس حينما يضع الفدائي حزام الديناميت حول جسده ويتقدم ليحطم الدبابة ومن فيها . . أين جسده هنا . . أين المصلحة المادية التي يحققها بموته . . ومن الذي يأمر الآخر . . إن الروح تقرر اعدام الجسد في لحظة مثالية تماما لا يمكن أن يفسرها مذهب مادي بأي مكسب مادي والجسد لا يستطيع أن يقاوم هذا الأمر . . ولا يملك أي قوة لمواجهته ، لا يملك إلا أن يتلاشى تماما . . وهنا يظهر أي الوجودين هو الأعلى . . وأي الطبيعتين هي الانسان حقا .

وعندنا اليوم أكثر من دليل على أن الجسد هو الوجود الثانوي . . ما يجري الآن من حوادث البتر والاستبدال وزرع الأعضاء . . وما نقرؤه عن القلب الالكتروني والكلية الصناعية وبنك الدم وبنك العيون ومخازن الاكسسوار البشري حيث يجري تركيب السيقان والأذرع والقلوب .

ولن تكون نكتة أن يدخل العريس على عروسه سنة ٢٠٠٠ فيجدها تخلع طقم الأسنان والباروكة والنهود الكاوتشوك والعين الصناعية والساق الخشبية فلا يتبقى منها الا هيكل مثل شاسيه السيارة بعد نزع الجلد والكراسي والأبواب .

إلى هذه الدرجة يجري فك الجسم وتركيبه واستبداله دون أن يحدث شيء للشخصية لأن هذه الذراع أو تلك الساق أو ذلك الشعر أو العين أو النهد كل هذه الأشياء ليست هي الانسان . . فها هي تنقل وتستبدل وتوضع مكانها بطاريات ومسامير وقطع من الألمونيوم دون أن يحدث شيء . . فالانسان ليس هذه الأعضاء وانما هو الروح الجالسة على عجلة

القيادة لتدير هذه الماكينة التي اسمها الجسد .

إنها الادارة التي يمثلها مجلس ادارة من خلايا المخ . . ولكنها ليست المخ .

فالمخ مثله مثل خلايا الجسد يصدع بالأوامر التي تصدر اليه ويعبر عنها ولكنه في النهاية ليس أكثر من قفاز لها . . قفاز تلبسه هذه اليد الخفية التي اسمها الروح وتتصرف به في العالم المادي .

نفهم من هذه الشواهد كلها أن الانسان له طبيعتان :

طبيعة جوهرية حاكمة هي روحه .

وطبيعة ثانوية زائلة هي جسده .

وما يحدث بالموت أن الطبيعة الزائلة تلتحق بالزوال والطبيعة الخالدة تلتحق بالخلود فيلتحق الجسد بالتراب وتلتحق الروح بعالمها الباقي .

ولعشاق الفلسفة نقدم دليلا آخر على وجود الروح من الخاصية التي تتميز بها الحركة .

فالحركة لا يمكن رصدها الا من خارجها .

لا يمكن أن تدرك الحركة وأنت تتحرك معها في نفس الفلك وإنما لا بد من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها . . ولهذا تأتي عليك لحظة وأنت في أسانسير متحرك لا تستطيع أن تعرف هل هو واقف أم متحرك لأنك أصبحت قطعة واحدة معه في حركته . . لا تستطيع ادراك هذه الحركة الا اذا نظرت من باب الأسانسير الى الرصيف الثابت في الخارج .

ونفس الحالة في قطار يسير بنعومة على القضبان . . لا تدرك حركة مثل هذا القطار وأنت فيه الا لحظة شروعه في الوقوف أو لحظة اطلالك من النافذة على الرصيف الثابت في الخارج .

وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وأنت فوقها ولكن يمكنك رصدها من القمر أو الأرض . . كما لا يمكنك رصد الأرض وأنت تسكن عليها وإنما تستطيع رصدها من القمر .

لا تستطيع أن تحيط بحالة الا اذا خرجت خارجها .

ولهذا ما كنا لنستطيع ادراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمني المستمر « أي على عتبة خلود » .

ولو كان ادراكنا يقفز مع عقرب الثواني كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثواني أبدا . ولا نصرم ادراكنا كما تنصرم الثواني بدون أن يلاحظ شيئا .

وهي نتيجة مذهلة تعني أن هناك جزءا من وجودنا خارجا عن اطار المرور الزمني « أي خالد » هو الذي يلاحظ الزمن من عتبة سكون ويدركه دون أن يتورط فيه ولهذا لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم . . ويوم يسقط الجسد ترابا سوف يظل هذا الجزء على حاله حيا حياته الخاصة غير الزمنية هذا الجزء هو الروح .

وكل منا يستطيع أن يحس بداخله هذا الوجود الروحي على صورة حضور وديمومة وشخوص وكينونة مغايرة تماما للوجود المادي المتغير المتقلب

النابض مع الزمن خارجه .

هذه الحالة الداخلية التي ندركها في لحظات الصحو الباطني والتي أسميتها حالة حضور . . هي المفتاح الذي يقودنا الى الوجود الروحي بداخلنا ويضع يدنا على هذا اللغز الذي إسمه الروح . .

ودليل آخر على طبيعتنا الروحية هو شعورنا الفطري بالحرية ، ولو كنا أجساما مادية ضمن اطار حياة مادية تحكمنا القوانين المادية الحتمية لما كان هناك معنى لهذا الشعور الفطري بالحرية .

لنا روح اذن تعلو على الزمن وتتخطى الموت وتتخطى الحتميات المادية .

ماذا عن البعث اذن .

لم يعد أحد بعد الموت ليخبرنا ماذا جرى له .

ولم يأت يوم البعث لنقدم دليلا ملموسا وشاهد عيان .

وكل ما يمكن قوله في موضوع البعث أنه حقيقة دينية يرجحها العقل والعلم .

لماذا يُرجحها العقل والعلم ؟ .

لأن شواهد الوجود وظواهره تشير جميعها الى أن هناك عودا على بدء ودورة لكل شيء . . بعد النهار يأتي الليل ثم يعود من جديد فيأتي النهار ، الشمس تشرق ثم تغرب ثم تعود فتشرق .

الصيف والخريف والشتاء والربيع ثم تعود فتتكرر الدورة من جديد فيأتي الصيف ثم الخزيف ثم الشتاء الخ . . بعد اليقظة ونوم الليل نعود فنستيقظ من جديد . . وهذا يرجح أنه بعد رقود الموت هناك صحوة بعث . . لأن هناك عودا لكل شيء . . والله يسمي نفسه في القرآن المبدىء والمعيد .

(كما بدأكم تعودون) ٢٩ - الأعراف

(يبدأ الخلق ثم يعيده) ٤ - يونس

ألا يدور كل شيء في فلك من الذرة الى المجرة ، حتى الحضارات لها دورات والتاريخ له دورات .

هذا العود الأبدي في كل شيء يرجح البعث .

الدليل الآخر على البعث هو النظام المحكم الذي ليس فيه بادرة خلل واحدة من أكبر المجرات حتى أصغر الذرات حتى الالكترون الذي لا يرى نجد النظام والقانون يهيمن على كل شيء . . حتى الالكترون المتناهي في الصغر لا يستطيع أن ينتقل من فلك الى فلك في الذرة الا اذا أعطى أو أخذ مقدارا من الطاقة يساوي حركته . . وكأنه راكب قطار لا يستطيع السفر الى أي مكان بدون تذكرة . . فكيف نتصور في هذا النظام المحكم أن يهرب قاتل أو يفر ظالم من الجزاء لمجرد أنه ضلل البوليسُ ، أن العقل يتصور أنه لا بد سيلقي جزاءه حتما ، وأن هناك لا بد عالما آخر يسوى فيه الحساب . . هكذا يقول العدل .

ونحن مفطورون على تحري العدل وعلى حب العدل والبحث عن

العدل ومحاولة تحقيق العدل .

ومع ذلك فالعدل في الدنيا غير موجود .

وكما يقول أهل الفكر اذا كان الظمأ الى الماء يدل على وجود الماء . . فلا بد أن الظمأ الى العدل يدل على وجود العدل . . فان لم يكن موجودا في دنيانا فلا بد أن له يوما وساعة تنصب فيها موازينه .

كل هذه مؤشرات تشير وترجح أن هناك بعثا وحسابا وعالما آخر .

والمؤمن الذي يصدق القرآن في غير حاجة الى هذه الاستدلالات لأنه آمن بقلبه وأراح نفسه من الجدل .

يبقى بعد ذلك أن نسأل . . وما الروح :

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) ٨٥ - الاسراء

هي لغز ولا أحد يعلم عنها شيئا .

والعجيب أنه كلما جاء ذكر الروح في القرآن ذكرت معها كلمة من أمر ربي .

(يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) ١٥ - غافر

(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) ٢ - النحل

(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ٤ - القدر

(وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) ٥٢ ـ الشورى

دائما كلمة « من أمرنا » . . « من أمره » . . « من أمر ربي » كلما ذكرت الروح .

أيكون أمر الله روحا ؟

وكلمة الله روحا ؟

ألم يقل الله عن المسيح عليه السلام انه :

(كلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) ٤٥ ـ آل عمران

وأنه :

(كلمته ألقاها الى مريم وروح منه) ١٧١ ـ النساء

الكلمة . . الأمر . . الروح . . هل هي ألفاظ مترادفة لمعنى واحد .

هي مجرد إشارات .

ولا أحد يعلم الحقيقة الا العليم

يبقى بعد ذلك سؤالك عن تحضير الأرواح .

وتحضير الأرواح عندنا أمر مشكوك فيه .

مشكوك فيه إن ظواهر الغرفة المظلمة سببها حضور روح فلان أو علان .

ومفكر كبير مثل هنري سودر يقول : إن تلك الظواهر مصدرها

العقل الباطن للوسيط والقوى الروحية للوسيط ذاته . . ولا شيء يحضر بالمرة .

ويقول المفكرون الهنود : ان الذي يتلبس الوسيط أثناء التحضير هي أرواح سفلية تعرف بعض الأشياء عن الموتى وتستخدمها في السخرية بعقول الموجودين والضحك عليهم .

ويقول الصوفية المسلمون ان الذي يحضر في تلك الجلسات ليس الروح ولكن القرين ، وهو الجن الذي كان يصاحب الميت أثناء حياته . . وهو بحكم هذه الصحبة يعرف أسراره . . ولأن الجن معمر فإنه يبقى حيا بعد موت صاحبه . . وهو الذي يحضر الجلسات ويفشي أسرار صاحبه ويقلد صوته وعاداته ليسخر من الموجودين على عادة الجن في عدائهم للانسان .

وهم يقولون : اننا اذا دققنا جرس المكتب فإن الذي يحضر هو الخادم . . أما السادة فإنهم لا يتركون عالمهم ويحضرون بهذه السذاجة وبالمثل في عالم الأرواح . . فالذي يحضر في الجلسات ويهرج على الموجودين هي الأرواح السفلية والجن ومن في مستواهم .

أما الأرواح البشرية فهي في عالم آخر هو عالم البرزخ ولا يمكن استحضارها . . ولكنها قد تتصل بمن تحب في الحلم أو في اليقظة اذا توفرت الظروف الملائمة .

ومن الجلسات الكثيرة التي حضرناها ومما جمعنا من خبرة خاصة في هذا الموضوع نقول : أنه لا يوجد دليل واحد على أن ظواهر الغرفة المظلمة

سببها حضور الروح المطلوبة .

وربما كان رأي الصوفية المسلمين أكثر الآراء تفسيرا لما يحدث .

والمسألة ما زالت قيد البحث .

وللأسف الشعوذات في هذا الموضع أكثر من الحقائق . . والكلمة الأخيرة لم تقل بعد .

ولا شك أنك سوف تضحك على كلمات مثل الجن والأرواح السفلية . . والقرين .

ولك عذرك . . فاذا كنت لا تؤمن بروحك أنت فكيف يتوقع منك أن تؤمن بجني . . واذا كنت لا تؤمن بالله فكيف ينتظر منك أن تؤمن بشياطينه .

ومع ذلك لو كنت ولدت منذ مائة سنة وجاءك رجل يحدثك عن أشعة غير منظورة تخرق الحديد ، وصور تنتقل في الهواء عبر المحيطات في أقل من ثانية ، ورائد فضاء يمشي على تراب القمر . . ألم تكن تضحك وتقهقه وتستلقي على قفاك أضعاف ما تضحك الآن . . وتقول لنفسك . . هذا رجل هارب من مستشفى المجاذيب ومع ذلك فيا لها من حقائق ملء السمع والبصر الآن .

● الضمير

قال صاحبي :

ـ أنتم تتكلمون عن الضمير في تقديس كما لو كان شيئا مطلقا مع أنه أحد المصنوعات الاجتماعية ، عملة نحاسية لا أكثر صكت ودمغت وسبكت في فرن التعاملات الاجتماعية وهو عندنا شيء تتغير أحكامه وضوابطه وفق المصالح الجارية والقيمة التي تفيد نقول عنها خيرا والقيمة التي تضر نقول عنها شرا ولو كانت هذه القيمة هي العفة التي تتمسكون بها كعيونكم .

قلت له في هدوء :

ـ نعم . . هذا هو رأي الفلسفة المادية على ما أسمع . . ان الضمير سلطة زجر وردع نبتت من الدواعي الاجتماعية . . مجرد تحصيل خبرة تتفاوت بين شخص وشخص وبين عصر وعصر وبين أمة وأمة .

هذا كلامكم .

ولكن الحقيقة غير ذلك .

الحقيقة أن الضمير نور وضعه الله في الفطرة ومؤشر ودليل وبوصلة نولد بها . . تهدينا الى الحقائق وكل دور الاكتساب الاجتماعي انه يجلو مرآة هذه البوصلة ويصقل زجاجها .

ولنا على ذلك براهين تؤيدنا وتشجب كلامكم .

انظر الى عالم الحيوان حيث لا مجتمع . ترى القطة تتبرز ثم تستدير لتغطي فضلاتها بالتراب ، في أي مجتمع قططي تعلمت القطة هذا الوازع ؟

وكيف ميزت بين القذارة والنظافة ؟

وأنت ترى القطة تسرق السمكة فاذا ضبطتها وضربتها على رأسها طأطأت ونكست بصرها في احساس واضح بالذنب . . وتراها تلهو مع الأطفال في البيت فتتكسر فازة أثناء اللعب . . فماذا يحدث ، إنها تجري في فزع وتختبىء تحت الكراسي وقد أدركت أنها أخطأت .

كل هذه شواهد وملامح ضمير .

وليس في مملكة القطط دواع لنشأة هذه المشاعر . . ولا نرى حتى مجتمعا قططيا من الاساس .

وتقاليد الوفاء الزوجي في الحمام .

ونبل الحصان في ارتباطه بصاحبه حتى الموت .

وكبرياء الأسد وترفعه عن الهجوم على فريسته من الخلف .

وخجل الجمل وتوقفه عن مضاجعة أنثاه اذا وجد أن هناك عينا ترقبه .

ثم تلك الحادثة البليغة التي رآها جمهور المشاهدين في السيرك القومي بالقاهرة . . حينما قفز الأسد على المدرب محمد الحلو من الخلف وأنشب مخالبه في كتفه وأصابه بجرح قاتل .

وبقية الحادثة يرويها موظفو السيرك . . كيف امتنع الأسد عن الطعام . . وحبس نفسه في زنزانته لا يبرحها . . وكيف نقلوه الى حديقة الحيوان وقدموا اله أنثى لتروح عنه فضربها وطردها . . وظل على صيامه ورفضه للطعام ثم انقض على يده الآثمة وظل يمزقها حتى نزف ومات .

حيوان ينتحر ندما وتكفيرا عن جريمته .

من أي مجتمع في دنيا السباع أخذ الأسد هذه التقاليد . . هل في مجتمع السباع أن افتراس الانسان جريمة تدعو الى الانتحار .

نحن هنا أمام نبل وخلق وضمير لا نجده في بشر .

ونحن أمام فشل كامل للتفسير المادي وللتصور المادي لحقيقة الضمير .

ولا تفسير لما نراه سوى ما يقوله الدين . . من أن الضمير هو نور وضعه الله في الفطرة وأن كل دور الاكتساب الاجتماعي أن يجلو صدأ النفس فتشف عن هذا النور الالهي .

وهذا هو ما حدث بين الأسد ومدربه . . المعاشرة والمحبة والمصاحبة صقلت تلك النفس الحيوانية فأيقظت ذلك القبس الرحماني . . فاذا بالأسد يحزن ويندم وينتحر كمدا كالبشر .

« الحلال بين والحرام بين » . . كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام .

« استفت قلبك وأن أفتاك الناس » .

لسنا في حاجة الى كلية شريعة لنعرف الخطأ من الصواب والحق من الباطل والحرام من الحلال . . فقد وضع الله في قلب كل منا كلية شريعة . . وميزانا لا يخطىء ، وكل ما نحن مطالبون به أن نجلو نفوسنا من غواشي المادة ومن كثافة الشهوات فنبصر ونرى ونعرف ونميز بدون عكاز « الخبرة الاجتماعية » وذلك بنور الله الذي اسمه الضمير .

(يا أيها الذين آمنوا أن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) ٢٩ ـ الأنفال

يقول الله في الحديث القدسي للصوفي محمد بن عبد الجبار :

« كيف تيأس مني وفي قلبك سفيري ومتحدثي » .

الضمير حقيقة ثابتة والقيم الاخلاقية الأساسية هي بالمثل ثابتة فقتل البريء لن يصبح يوما ما فضيلة وكذا السرقة والكذب وايذاء الآخرين والفحشاء والفجور والبذاءة والغلظة والقسوة والنفاق والخيانة كل هذه نقائص خلقية ، وسوف تظل هكذا الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وكذلك سوف تظل المحبة والرحمة والصدق والحلم والعفو والاحسان فضائل . . ولن تتحول الى جرائم الا اذا فسدت السموات والأرض وساد الجنون وانتهى العقل .

● هل مناسك الحج وثنيّة ؟

قال صاحبي وهو يفرك يديه ارتياحا ويبتسم ابتسامة خبيثة تبدي نواجذه وقد لمعت عيناه بذلك البريق الذي يبدو في وجه الملاكم حينما يتأهب لتوجيه ضربة قاضية .

ـ ألا تلاحظ معي أن مناسك الحج عندكم هي وثنية صريحة . ذلك البناء الحجري الذي تسمونه الكعبة وتتمسحون به وتطوفون حوله ، ورجم الشيطان . . والهرولة بين الصفا والمروة ، وتقبيل الحجر الأسود . . وحكاية السبع طوفات والسبع رجمات والسبع هرولات وهي بقايا من خرافة الأرقام الطلسمية في الشعوذات القديمة ، وثوب الأحرام الذي تلبسونه على اللحم . . لا تؤاخذني اذا كنت أجرحك بهذه الصراحة ولكن لا حياء في العلم .

وراح ينفث دخان سيجارته ببطء ويراقبني من وراء نظارته .

قلت في هدوء :

ـ ألا تلاحظ معي أنت أيضا أن في قوانين المادة التي درستها أن الأصغر يطوف حول الأكبر ، الالكترون في الذرة يدور حول النواة ، والقمر حول الأرض ، والأرض حول الشمس ، والشمس حول المجرة ، والمجرة حول مجرة أكبر ، الى أن نصل الى « الأكبر مطلقا » وهو الله . . ألا

نقول « الله أكبر » . . أي أكبر من كل شيء . . وبالتالي وحسب قانونك العلمي يجب أن يطوف حوله كل شيء . . وأنت الآن تطوف حوله ضمن مجموعتك الشمسية رغم أنفك ولا تملك الا أن تطوف فلا شيء ثابت في الكون الا الله هو الصمد الصامد الساكن والكل في حركة حوله . . وهذا هو قانون الأصغر والأكبر الذي تعلمته في الفيزياء . . أما نحن فنطوف باختيارنا حول بيت الله . . وهو أول بيت اتخذه الانسان لعبادة الله . . فأصبح من ذلك التاريخ السحيق رمزا وبيتا لله . . ألا تطوفون أنتم حول رجل محنط في الكرملين تعظمونه وتقولون أنه أفاد البشرية ، ولو عرفتم لشكسبير قبرا لتسابقتم الى زيارته بأكثر مما نتسابق الى زيارة قبر محمد عليه الصلاة والسلام . . ألا تضعون باقة ورد على نصب حجري وتقولون انه يرمز للجندي المجهول فلماذا تلوموننا لأننا نلقي حجرا على نصب رمزي نقول أنه يرمز الى الشيطان . . ألا تعيش في هرولة من ميلادك الى موتك ثم بعد موتك يبدأ ابنك الهرولة من جديد وهي نفس الرحلة الرمزية من الصفا « الصفاء أو الخواء أو الفراغ رمز للعدم » الى المروة وهو النبع الذي يرمز الى الحياة والوجود . . من العدم الى الوجود ثم من الوجود الى العدم . . أليست هذه هي الحركة البندولية لكل المخلوقات . . ألا ترى في مناسك الحج تلخيصا رمزيا عميقا لكل هذه الأسرار .

ورقم ٧ الذي تسخر منه . . دعني أسألك ما السر في أن درجات السلم الموسيقى ٧ صول لا سي دو ري مي فا ثم بعد المقام السابع يأتي جواب الصول من جديد . . فلا نجد ٨ وانما نعود الى سبع درجات أخرى وهلم جرا ، وكذلك درجات الطيف الضوئي ٧ وكذلك تدور

الالكترونات حول نواة الذرة في نطاقات ٧ والجنين لا يكتمل الا في الشهر ٧ واذا ولد قبل ذلك يموت وأيام الأسبوع عندنا وعند جميع أفراد الجنس البشري ٧ وضعوها كذلك دون أن يجلسوا ويتفقوا . . ألا يدل ذلك على شيء . . أم أن كل هذه العلوم هي الأخرى شعوذات طلسمية .

ألا تقبل خطابا من حبيبتك . . هل أنت وثني ؟ فلماذا تلومنا اذا قبلنا ذلك الحجر الأسود الذي حمله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام في ثوبه وقبله . لا وثنية في ذلك بالمرة . . لأننا لا نتجه بمناسك العبادة نحو الحجارة ذاتها . . وانما نحو المعاني العميقة والرموز والذكريات .

إن مناسك الحج هي عدة مناسبات لتحريك الفكر وبعث المشاعر واثارة التقوى في القلب . أما ثوب الأحرام الذي نلبسه على اللحم ونشترط ألا يكون مخيطا فهو رمز للخروج من زينة الدنيا وللتجرد التام أمام حضرة الخالق . . تماما كما نأتي الى الدنيا في اللفة ونخرج من الدنيا في لفة وندخل القبر في لفة . . ألا تشترطون أنتم لبس البدل الرسمية لمقابلة الملك ونحن نقول : أنه لا شيء يليق بجلالة الله الا التجرد وخلع جميع الزينة لأنه أعظم من جميع الملوك ولأنه لا يصلح في الوقفة أمامه الا التواضع التام والتجرد . . ولأن هذا الثوب البسيط الذي يلبسه الغني والفقير والمهراجا والمليونير أمام الله فيه معنى آخر للأخوة رغم تفاوت المراتب والثروات .

والحج عندنا اجتماع عظيم ومؤتمر سنوي . . ومثله صلاة الجمعة وهي المؤتمر الصغير الذي نلتقي فيه كل أسبوع

هي كلها معان جميلة لمن يفكر ويتأمل . . وهي أبعد ما تكون عن الوثنية .

ولو وقفت معي في عرفة بين عدة ملايين يقولون الله أكبر ويتلون القرآن بأكثر من عشرين لغة ويهتفون لبيك اللهم لبيك ويبكون ويذوبون شوقا وحبا ـ لبكيت أنت أيضا دون أن تدري وذبت في الجمع الغفير من الخلق . . وأحسست بذلك الفناء والخشوع أمام الاله العظيم مالك الملك الذي بيده مقاليد كل شيء .

● لماذا لا يكون القرآن من تأليف محمد ؟

قال صاحبي وهو ينتقي عباراته :

ـ لا أريد أن أجرحك فأنا أعلم اعتزازك بالقرآن وأنا معك في أنه كتاب قيم . . ولكن لماذا لا يكون من تأليف محمد . . إن رجلا في عظمة محمد لا يستغرب منه أن يضع كتابا في عظمة القرآن . . وسوف يكون هذا منطقيا أكثر من أن نقول ان الله أنزله . . فإنا لم نر الله ينزل من السماء شيئا . . ونحن في عصر من الصعب أن نقنع فيه انسانا بأن هناك ملاكا اسمه جبريل نزل من السماء بكتاب ليوحي به الى أحد .

قلت في هدوء :

ـ بل نحن في عصر يسهل فيه تماما أن نصدق بأن هناك ملائكة لا ترى وبأن الحقائق يمكن أن تلقي الى الانسان وحيا . . فهم يتكلمون اليوم عن أطباق طائرة تنزل على الأرض من كواكب بعيدة وأشعة غير منظورة تقتل ، وأمواجا لاسلكية تحدد الاهداف وتضربها . . وصورا تتحول الى ذبذبات في الهواء ثم تستقبل في أجهزة صغيرة كعلب التبغ . . وكاميرات تصور الأشباح . . وعيونا ترى في الظلام . . ورجلا يمشي على القمر . . وسفينة تنزل على المريخ .

لم يعد غريبا أن نسمع أن الله أرسل ملكا خفيا من ملائكته . . وأنه

القى بوحيه على أحد أنبيائه . . لقد أصبح وجود جبريل اليوم حقيقة من الدرجة الثانية . . وأقل عجبا وغرابة مما نرى ونسمع كل يوم .

أما لماذا لا نقول أن القرآن من تأليف محمد عليه الصلاة والسلام . . فلأن القرآن بشكله وعباراته وحروفه وما احتوى عليه من علوم ومعارف وأسرار وجمال بلاغي ودقة لغوية هو مما لا يدخل في قدرة بشر أن يؤلفه . . فاذا أضفنا الى ذلك أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعلم في مدرسة ولم يختلط بحضارة ولم يبرح شبه الجزيرة العربية فان احتمال الشك واحتمال القاء هذا السؤال يغد مستحيلا . . والله يتحدى المنكرين أمثالك ممن زعموا أن القرآن مؤلف .

(قل فاتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله) ٣٨ - يونس

استعينوا بالجن والملائكة وعباقرة الانس وأتوا بسورة من مثله .

وما زال التحدي قائما ولم يأت أحد بشيء .

واذا نظرنا الى القرآن في حياد وموضوعية فسوف نستبعد تماما أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام هو مؤلفه . . أولا . . لأنه لو كان مؤلفه لبث فيه همومه وأشجانه ونحن نراه في عام واحد يفقد زوجه خديجة وعمه أبا طالب ولا سند له في الحياة غيرهما . . وفجيعته فيهما لا تقدر . . ومع ذلك لا يأتي لهما ذكر في القرآن ولا كلمة . . وكذلك يموت ابنه ابراهيم ويبكيه ولا يأتي لذلك خبر في القرآن . . القرآن معزول تماما عن الذات المحمدية .

بل أن الآية لتأتي مناقضة لما يفعله محمد وما يفكر فيه . . وأحيانا

تنزل الآية معاتبة له كما حدث بصدد الأعمى الذي انصرف عنه النبي الى أشراف قريش .

(عبس وتولى ان جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى) ١ - ٤ عبس

وأحيانا تنزل الآية فتنقض عملا من أعمال النبي .

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة . . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) ٦٧ - الأنفال .

وأحيانا يأمر القرآن محمدا عليه الصلاة والسلام بأن يقول لاتباعه ما لا يمكن أن يقوله لو أنه كان يؤلف الكلام تأليفا .

(قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم) ٩ - الأحقاف

لا يوجد نبي يتطوع من تلقاء نفسه ليقول لأتباعه لا أدري ما يفعل بي ولا بكم . . لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا . . ولا أملك لكم ضرا ولا نفعا . .

فان هذا يؤدي الى أن ينفض عنه أتباعه . .

وهذا ما حدث فقد اتخذ اليهود هذه الآية عذرا ليقولوا . . ما نفع هذا النبي الذي لا يدري ماذا يفعل به ولا بنا . . هذا رجل لا جدوى فيه . .

مثل هذه الآيات ما كان يمكن أن يؤلفها النبي لو كان يضع القرآن

من عند نفسه .

ثانيا ـ لو نظرنا بعد ذلك في العبارة القرآنية لوجدنا أنها جديدة منفردة في رصفها وبنائها ومعمارها ليس لها شبيه فيما سبق من أدب العرب ولا شبيه فيما أتى لاحقا بعد ذلك . . حتى لتكاد اللغة تنقسم الى شعر ونثر وقرآن . . فنحن أمام كلام هو نسيج وحده لا هو بالنثر ولا بالشعر . فموسيقى الشعر تأتي من الوزن ومن التقفية فنسمع الشاعر ابن الأبرص الأسدي ينشد :

أقفر من اهله عبيد

فليس يبدي ولا يعيد

هنا الموسيقى تخرج من التشطير ومن التقفية على الدال الممدودة ، فهي موسيقى خارجية . . أما موسيقى القرآن فهي موسيقى داخلية .

(**والضحى والليل اذا سجى**) ١ ـ الضحى

لا تشطير ولا تقفية في هذه العبارة البسيطة ولكن الموسيقى تقطر منها . . من أين . . انها موسيقى داخلية .

إسمع هذه الآيات :

(**رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا**) ٤ ـ مريم

وهذه الآيات :

(**طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا**

ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى) ١ ـ ٤
طه

فاذا تناولت الآيات تهديدا تحول بناء العبارة ونحتها الى جلاميد صخر وأصبح للايقاع صلصلة نحاسية تصخ السمع .

(انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر) ١٩ ـ ٢٠ القمر

كلمات مثل « صرصرا » . . « ومنقعر » . . كل كلمة كأنها جلمود صخر .

فاذا جاءت الآية لتروي خبرا هائلا كما في نهاية الطوفان تقاصرت العبارات وكأنها اشارات مورس التلغرافية ، وأصبحت الآية كلها كأنها تلغراف مقتضب له وقع هائل .

(وقيل يا أرض إبلعي ماءك ، ويا سماء إقلعي وغيض الماء وقضي الأمر) ٤٤ ـ هود

هذا التلون في نحت الألفاظ وفي بناء العبارة وفي ايقاع الكلمات مع المعاني والمشاعر . . يبلغ في القرآن ذروة . . ويأتي دائما منسابا لا تكلف فيه ولا تعمل .

ثالثا ـ اذا مضينا في التحليل أكثر فانا سنكتشف الدقة البالغة والأحكام المذهل . . كل حرف في مكانه لا تقديم ولا تأخير . . لا تستطيع أن تضع كلمة مكان كلمة ولا حرفا مكان حرف . . كل لفظة تم اختيارها من مليون لفظة بميزان دقيق .

وسنرى ان هذه الدقة البالغة لا مثيل لها في التأليف .

انظر الى هذه الكلمة « لواقح » في الآية

(وأرسلنا الرياح لواقح) ٢٢ ـ الحجر

وكانوا يفسرونها في الماضي على المعنى المجازي بمعنى أن الرياح تثير السحب فتسقط المطر فيلقح الأرض بمعنى « يخصبها » ثم عرفنا اليوم أن الرياح تسوق السحب ايجابية التكهرب وتلقي بها في أحضان السحب سالبة التكهرب فيحدث البرق والرعد والمطر . . وهي بهذا المعنى « لواقح » أيضا ونعرف الآن أيضا ان الرياح تنقل حبوب اللقاح من زهرة الى زهرة فتلقحها بالمعنى الحرفي .

فها نحن أمام كلمة صادقة مجازيا وحرفيا وعلميا ثم هي بعد ذلك جميلة فنيا وأدبيا وذات ايقاع حلو .

هنا نرى منتهى الدقة في انتقاء اللفظة ونحتها ، وفي آية أخرى .

(لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) ١٨٨ ـ البقرة

كلمة « تدلوا » .

مع أن الحاكم الذي تلقى اليه الأموال في الأعلى وليس في الأسفل . . لا . . إن القرآن يصحح الوضع . . فاليد التي تأخذ الرشوة هي اليد السفلى ولو كانت يد الحاكم . . ومن هنا جاءت كلمة « تدلوا بها الى الحكام » لتعبر في بلاغة لا مثيل لها عن دناءة المرتشي وسفله .

وفي آية الجهاد .

(ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم الى الأرض)
٣٨ ـ التوبة

القرآن يستعمل كلمة « أثاقلتم » بدلا من تثاقلتم .. يدمج الحروف أدماجا ويلصقها الصاقا ليعبر عن جبن الجبناء الذين يلتصقون بالأرض « ويتربسون » فيها من الخوف اذا دعوا الى القتال فجاءت حروف الكلمة بالمثل « متربسة » .

وفي آية قتل الأولاد من الفقر نراها جاءت على صورتين :

(ولا تقتلوا أولادكم من أملاق نحن نرزقكم واياهم) ١٥١ ـ الأنعام

(ولا تقتلوا أولادكم خشية أملاق نحن نرزقهم واياكم) ٣١ ـ الاسراء

والفرق بين الآيتين لم يأت اعتباطا وانما جاء لأسباب محسوبة .. فحينما يكون القتل من املاق فان معناه أن الأهل فقراء في الحاضر فيقول نحن « نرزقكم » واياهم . وحينما يكون قتل الأولاد خشية أملاق فان معناه أن الفقر هو احتمال في المستقبل ولهذا تشير الآية الى الأبناء فتقول نحن « نرزقهم » واياكم . مثل هذه الفروق لا يمكن أن تخطر على بال مؤلف .

وفي حالات التقديم والتأخير نجد دائما أنه لحكمة . نجد أن السارق مقدم على السارقة في آية السرقة بينما الزانية مقدمة على الزاني في آية الزنا .. وذلك لسبب واضح أن الرجل أكثر ايجابية في السرقة .. أما

في الزنا فالمرأة هي التي تأخذ المبادرة . . من لحظة وقوفها أمام المرآة تضع البارفان ولمسات التواليت وتختار الفستان أعلى الركبة فإنها تنصب الفخاخ للرجل الموعود .

(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) ٢ ـ النور

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) ٣٨ ـ المائدة

وبالمثل تقديم السمع على البصر في أكثر من ١٦ مكاناه .

(وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) ٧٨ ـ النحل

(وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة) ٢٦ ـ الأحقاف

(أسمع بهم وأبصر) ٣٨ ـ مريم

(ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) ٣٦ ـ الاسراء

(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم) ٢٢ ـ فصلت

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ١١ ـ الشورى

دائما السمع أولا .

ولا شك أن السمع أكثر ارهافا وكمالا من البصر .

إننا نسمع الجن ولا نراه .

والأنبياء سمعوا الله وكلموه ولم يره احد .

وقد تلقى محمد عليه الصلاة والسلام القرآن سمعا . . والأم تميز بكاء ابنها في الزحام ولا تستطيع أن تميز وجهه . . والسمع يصاحب الانسان أثناء النوم فيظل صاحيا بينما تنام عيناه ، ومن حاول تشريح جهاز السمع يعلم أنه أعظم دقة وارهافا من جهاز البصر .

وبالمثل تقديم المال على الولد .

(يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) ٨٨ ـ الشعراء

(انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) ١٥ ـ التغابن

(لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ١١٦ ـ آل عمران

(أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) ٥٥ ـ المؤمنون

(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) ٥٥ ـ التوبة .

(اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته) ٢٠ ـ الحديد

والأمثلة على هذا التقديم كثيرة .

والسر أن المال عند أكثر الناس أعز من الولد . .

ثم الدقة والخفاء واللطف في الاعراب . انظر الى هذه الآية .

(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما) ٩ ـ الحجرات

مرة عوملت الطائفتان على أنهما جمع (اقتتلوا) ومرة على أنهما مثنى (**فاصلحوا بينهما**) والسر لطيف . . فالطائفتان في القتال تلتحمان وتصبحان (جمعا) من الأذرع المتضاربة . . بينما في الصلح تنفصلان الى (اثنين) . . وترسل كل واحدة عنها مندوبا ومن هنا قال :

(وان طائفتان من المؤمنين « اقتتلوا » فأصلحوا « بينهما ») .

حتى حروف الجر والوصل والعطف تأتي وتمتنع في القرآن لأسباب عميقة وبحساب دقيق محكم . . مثلا تأتي كلمة « يسألونك » في أماكن عديدة من القرآن :

(يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) ٢١٩ ـ البقرة

(يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) ٨٥ ـ الاسراء

(يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج) ١٨٩ ـ البقرة

دائما الجواب بكلمة « قل » . . ولكنها حين تأتي عن الجبال :

(يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا) ١٠٥ ـ طه

هنا لأول مرة جاءت « فقل » بدلا من « قل » .

والسبب أن كل الأسئلة السابقة كانت قد سئلت بالفعل ، أما سؤال الجبال فلم يكن قد سئل بعد لأنه من أسرار القيامة ، وكأنما يقول الله ، فاذا سألوك عن الجبال « فقل » . . فجاءت الفاء زائدة لسبب محسوب .

أما في الآية

(واذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي) ١٨٦ - البقرة

هنا لا ترد كلمة قل لأن السؤال عن ذات الله . . والله أولى بالاجابة عن نفسه .

كذلك الضمير أنا ونحن .

يتكلم الله بضمير الجمع حيثما كان التعبير عن « فعل » الهي تشترك فيه مجموع الصفات الالهية كالخلق وانزال القرآن وحفظه . .

(انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ٩ - الحجر

(نحن خلقناكم فلولا تصدقون) ٦٧ - الواقعة

(انا أنزلناه في ليلة القدر) ١ - القدر

(أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) ٥٩ - الواقعة

(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) ٢٨ - الانسان

« ونحن » هنا تعبر عن جمعية الصفات الالهية وهي تعمل في ابداع عظيم مثل عملية الخلق .

أما اذا جاءت الآية في مقام مخاطبة بين الله وعبده كما في موقف المكالمة مع موسى . . تأتي الآية بضمير المفرد .

(انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) ١٤ - طه

الله يقول « أنا » لأن الحضرة هنا حضرة ذات ، وتنبيها منه سبحانه على مسألة التوحيد والوحدانية في العبادة .

ونجد مثل هذه الدقة الشديدة في آيتين متشابهتين عن الصبر تفترق الواحدة عن الأخرى في حرف اللام .

يقول لقمان لولده :

(واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور) ١٧ ـ لقمان

وفي آية اخرى عن الصبر نقرأ :

(ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور) ٤٣ ـ الشورى

الصبر في الأولى « من عزم الأمور » وفي الثانية « لمن عزم الأمور » . . وسر التوكيد باللام في الثانية أنه صبر مضاعف لأنه صبر على عدوان بشري لك فيه غريم وأنت مطالب فيه بالصبر والمغفرة وهو أمر أشد على النفس من الصبر على القضاء الالهي الذي لا حيلة فيه .

ونفس هذه الملاحظة عن « اللام » نجدها مرة أخرى في آيتين عن انزال المطر وانبات الزرع :

(أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا « أي مالحا ») ٦٩ ـ الواقعة

وفي آية ثانية :

(أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما) ٦٥ ـ الواقعة

في الآية الأولى « جعلناه » أجاجا . . وفي الآية الثانية « لجعلناه » حطاما واللام جاءت في الثانية لضرورة التوكيد لأن هناك من سوف يدعي بأنه يستطيع أن يتلف الزرع كما يتلفه الخالق ويجعله حطاما . . بينما لن يستطيع أحد من البشر أن يدعي أن في إمكانه أن ينزل من سحب السماء مطرا مالحا فلا حاجة الى توكيد باللام . .

ونفس هذه الدقة نجدها في وصف ابراهيم لربه في القرآن بأنه :

(الذي يميتني ثم يحيين) ٨١ - الشعراء

(والذي هو يطعمني ويسقين) ٧٩ - الشعراء

فجاء لكلمة « هو » حينما تكلم عن « الاطعام » ليؤكد الفعل الالهي لأنه سوف يدعي الكل أنهم يطعمونه ويسقونه . . بينما لن يدعي أحد بأنه يميته ويحييه كما يميته الله ويحييه .

ونجد هذه الدقة أيضا حينما يخاطب القرآن المسلمين قائلا :

(اذكروني أذكركم) ١٥٢ - البقرة

ويخاطب اليهود قائلا :

(اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) ٤٠ - البقرة

فاليهود ماديون لا يذكرون الله الا في النعمة والفائدة والمصلحة ، والمسلمون أكثر شفافية ويفهمون معنى أن يذكر الله لذاته لا لمصلحة . . وبنفس المعنى يقول الله للخاصة من أولي الألباب :

(اتقوني يا أولي الألباب) ١٩٧ - البقرة

ويقول للعوام :

(اتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) ٢٤ ـ البقرة

لأن العوام لا يردعهم الا النار أما الخاصة فهم يعلمون أن الله أقوى من كل نار وأنه يستطيع أن يجعل النار بردا وسلاما ان شاء .

ونجد مثل هذه الدقة البالغة في اختيار اللفظ في كلام ابليس حينما أقسم على ربه قائلا :

(فبعزتك لأغوينهم أجمعين) ٨٢ ـ ص .

أقسم ابليس بالعزة الالهية ولم يقسم بغيرها فأثبت بذلك علمه وذكاءه لأن هذه العزة الالهية هي التي أقتضت استغناء الله عن خلقه , فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . . ولن يضروا الله شيئا فهو العزيز عن خلقه ، الغني عن العالمين .

ويقول الله في حديثه القدسي :

« هؤلاء في النار ولا أبالي وهؤلاء في الجنة ولا أبالي » .

وهذا مقتضى العزة الالهية . .

وهي الثغرة الوحيدة التي يدخل منها ابليس . . فهو بها يستطيع أن يضل ويوسوس لأن الله لن يقهر أحدا اختار الكفر على الايمان . . ولهذا قال « فبعزتك » لأغوينهم أجمعين .

(لأقعدن لهم صراطك المستقيم ولآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم) ١٦ ـ الأعراف

ذكر الجهات الأربع ولم يذكر من فوقهم ولا من تحتهم . . لأن « فوق » الربوبية ، « وتحت » ، تواضع العبودية . . ومن لزم مكانه الأدنى من ربه الأعلى . . لم يستطع الشيطان أن يدخل عليه .

ثم ذكر ابليس ان مقعده المفضل للاغواء سوف يكون الصراط المستقيم . . على طريق الخير وعلى سجادة الصلاة لأن تارك الصلاة والسكير والعربيد ليس في حاجة الى إبليس ليضله فقد تكفلت نفسه بإضلاله . . انه انسان خرب ، وإبليس لص ذكي لا يحب أن يضيع وقته بأن يحوم حول البيوت الخربة .

مثل آخر من أمثلة الدقة القرآنية نجده في سبق المغفرة على العذاب والرحمة على الغضب في القرآن . . فالله في الفاتحة هو الرحمن الرحيم قبل أن يكون مالك يوم الدين . . وهو دائما يوصف بأنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . تأتي المغفرة أولا قبل العذاب الا في مكانين في آية قطع اليد :

(يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء) ٤٠ ـ المائدة

لأن العقوبة بقطع اليد عذاب دنيوي . . تليه مغفرة أخروية . . وفي كلام عيسى يوم القيامة عن المشركين الذين عبدوه من دون الله . . .فيقول لربه :

(ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) ١١٨ ـ المائدة

فلا يقول فانك أنت الغفور الرحيم تأدبا . . ويذكر لهم العذاب قبل المغفرة . . لعظم الإثم الذي وقعوا فيه .

ونجد هذه الدقة القرآنية مرة أخرى في تناول القرآن للزمن . . فالمستقبل يأتي ذكره على لسان الخالق على أنه ماض . . فأحداث يوم القيامة ترد كلها على أنها ماض .

(ونفخ في الصور) ٩٩ ـ الكهف

(وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) ١٦ ـ الحاقة

(وبرزت الجحيم للغاوين) ٩١ ـ الشعراء

(وعرضوا على ربك صفا) ٤٨ ـ الكهف

والسر في ذلك ان كل الأحداث حاضرها ومستقبلها قد حدثت في علم الله وليس عند الله زمن يحجب عنه المستقبل فهو سبحانه فوق الزمان والمكان ولهذا نقرأ العبارة القرآنية احيانا فنجد أنها تتحدث عن زمانين مختلفين وتبدو في ظاهرها متناقضة مثل :

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه) ١ ـ النحل

فالأمر قد أتى وحدث في الماضي . لكن الله يخاطب الناس بأن لا يستعجلوه كما لو كان مستقبلا لم يحدث بعد . . والسر كما شرحنا أنه حدث في علم الله لكنه لم يحدث بعد في علم الناس ولا تناقض . . وإنما دقة وأحكام وخفاء واستسرار وصدق في المعاني العميقة .

هذه بعض الأمثلة للدقة البالغة والنحت المحكم في بناء العبارة القرآنية وفي اختيار الألفاظ واستخدام الحروف لا زيادة ولا نقص ولا تقديم ولا تأخير الا بحساب وميزان ولا نعرف لذلك مثيلا في تأليف أو كتاب مؤلف ولا نجده الا في القرآن .

أما لمحات العلم في القرآن وعجائب الآيات الكونية التي أتت بالاسرار والخفايا التي لم تكتشف الا في عصرنا ، والتي لم يعرفها محمد عليه الصلاة والسلام ولا عصره فهي موضوع آخر يطول ، وله جلسة اخرى .

● القرآن لا يمكن أن يكون مؤلفا

قلت لصديقي :

ربما كان حديث اليوم عن لمحات العلم في القرآن أكثر اثارة لعقلك العلمي من جلستنا السابقة . . فما كال الفلك الحديث ولا علوم الذرة ولا علوم البيولوجيا والتشريح معروفة حينما نزلت الأيات الكونية في القرآن منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة لتتكلم عن السموات والأرض والنجوم والكواكب وخلق الجنين وتكوين الانسان بما يتفق مع أحدث العلوم التي جاء بها عصرنا .

ولم يتعرض القرآن لهذه الموضوعات بتفصيل الكتاب العلمي المتخصص لأنه جاء في المقام الأول كتاب عقيدةومنهج وتشريع . . ولو أنه تعرض لتلك الموضوعات بتفصيل ووضوح لصدم العرب بما لا يفهمونه . . ولهذا لجأ الى أسلوب الاشارة واللمحة والومضة لتفسرها علوم المستقبل وكشوفه بعد ذلك بمئات السنين . . وتظهر للناس جيلا بعد جيل كآيات ومعجزات على صدق نزول القرآن من الله الحق .

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) ٥٣ ـ فصلت

لأنهم لم يكتفوا بشهادة الله على كتابه . . فأصبح من الضروري أن

نريهم ذلك بالآيات الكاشفة .

هكذا يقول الله في كتابه .

وما زال القرآن يكشف لنا يوما بعد يوم مزيدا من تلك الآيات العجيبة .

حول كروية الأرض جاءت هذه الآيات الصريحة التي تستخدم لفظ التكوير لتصف انزلاق الليل والنهار كنصفي كرة .

(يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) ٥ ـ الزمر

ثم الآية التي تصف دحو الأرض

(والأرض بعد ذلك دحاها) ٣٠ ـ النازعات

ودحا هي الكلمة الوحيدة في القاموس التي تعني البسط والتكوير معا . . والأرض كما هو معلوم مبسوطة في الظاهر ومكورة في الحقيقة بل هي أشبه بالدحية « البيضة » في تكويرها .

ثم نقرأ اشارة اخرى صريحة عن أن الجبال تسبح في الفضاء وبالتالي فالأرض كلها تسبح بجبالها حيث هي والجبال كتلة واحدة .

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء) ٨٨ ـ النمل

فالجبال التي تبدو جامدة ساكنة هي في الواقع سابحة في الفضاء . . وتشبيه الجبال بالسحب فيه لمحة أخرى عن التكوين الهش للمادة . . التي نعرف الآن أنها مؤلفة من ذرات كما ان السحب مؤلفة من قطيرات .

ثم الكلام عن تواقت الليل والنهار دون أن يسبق أحدهما الآخر من مبدأ الخلق الى نهايته .

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) ٤٠ ـ يس

أشارة أخرى الى كروية الأرض . . حيث بدأ الليل والنهار معا وفي وقت واحد منذ بدء الخليقة كنصفي كرة ولو كانت الأرض مسطحة لتعاقب النهار والليل الواحد بعد الآخر بالضرورة .

ثم تأتي القيامة والأرض في ليل ونهار في وقت واحد كما كانت يوم البدء .

(حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) ٢٤ ـ يونس

وفي قوله ليلا أو نهارا . . تأكيد لهذا التواقت الذي لا تفسير له الا أن نصف الأرض محجوب عن الشمس ومظلم والآخر مواجه للشمس ومضيء بحكم كونها كروية ولو كانت مسطحة لكان لها في كل وقت وجه واحد ولما صح أن نقول :

(ولا الليل سابق النهار) ٤٠ ـ يس

ثم تعدد المشارق والمغارب في القرآن فالله يوصف بأنه :

(رب المشارق والمغارب) ٤٠ ـ المعارج

و (رب المشرقين ورب المغربين) ١٧ - الرحمن

ولو كانت الأرض مسطحة لكان هناك مشرق واحد ومغرب واحد .

يقول الانسان لشيطانه يوم القيامة :

(يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين) ٣٨ - الأعراف

ولا تكون المسافة على الأرض أبعد ما تكون بين مشرقين الا اذا كانت الأرض كروية .

ثم الكلام عن السماء بأن فيها مسارات ومجالات وطرقا :

(والسماء ذات الحبك) ٧ - الذاريات

والحبك هي المسارات .

(والسماء ذات الرجع) ١١ - الطارق

أي أنها ترجع كل ما يرتفع فيها الى الأرض . . ترجع بخار الماء مطرا . . وترجع الأجسام بالجاذبية الأرضية . وترجع الأمواج اللاسلكية بانعكاسها من طبقة الايونوسفير . . كما ترجع الأشعة الحرارية تحت الحمراء معكوسة الى الأرض بنفس الطريقة فتدفئها في الليل .

، وكما تعكس السماء ما ينقذف اليها من الأرض كذلك تمتص وتعكس وتشتت ما ينقذف اليها من العالم الخارجي وبذلك تحمي الأرض من قذائف الأشعة الكونية المميتة والأشعة فوق البنفسجية القاتلة . . فهي تتصرف كأنها سقف .

(وجعلنا السماء سقفا محفوظا) ٣٢ ـ الأنبياء

(والسماء بنيناها بأيد وأنا لموسعون) ٤٧ ـ الذاريات

وهو ما يعرف الان باسم تمدد الكون المضطرد .

وكان مثقال الذرة يعرف في تلك الأيام بأنه أصغر مثقال وكانت الذرة توصف بأنها جوهر فرد لا ينقسم . . فجاء القرآن ليقول بمثاقيل أصغر تنقسم اليها الذرة . . وكان أول كتاب يذكر شيئا أصغر من الذرة .

(لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) ٣ ـ سبأ

كل هذه لمحات كاشفة قاطعة عن حقائق مذهلة مثل كروية الأرض وطبيعة السماء والذرة وهي حقائق لم تكن تخطر على بال عاقل أو مجنون في هذا العصر البائد الذي نزل فيه القرآن .

ثم بصيرة القرآن في تكوين الانسان وكلامه عن النطفة المنوية وانفرادها بتحديد جنس المولود .

(والذي خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة اذا تمنى) ٤٥ ـ النجم

وهي حقيقة بيولوجية لم تعرف الا هذا الزمان . . ونحن نقول الآن أن رأس الحيوان المنوي هو وحده الذي يحتوي على عوامل تحديد الجنس

Sex Determination Factor

وتسوية البنان بما فيه من رسوم البصمات التي أوردها الله في مجال

التحدي عن البعث والتجسيد .

(أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه) ٣ ـ ٤ القيامة

بل سوف نجسد حتى ذلك البنان ونسويه كما كان . . وفي ذلك لفتة الى الاعجاز الملحوظ في تسوية البنان بحيث لا يتشابه فيه اثنان .

وأوهن البيوت في القرآن هو بيت العنكبوت . . لم يقل الله خيط العنكبوت بل قال بيت العنكبوت . . وخيط العنكبوت كما هو معلوم أقوى من مثيله من الصلب أربع مرات . . انما الوهن في البيت لا في الخيط . . حيث يكون البيت أسوأ ملجأ لمن يحتمي فيه فهو مصيدة لمن يقع فيه من الزوار الغرباء . . وهو مقتل حتى لأهله فالعنكبوت الأنثى تأكل زوجها بعد التلقيح . . وتأكل أولادها عند الفقس والأولاد يأكل بعضهم بعضا .

إن بيت العنكبوت هو أبلغ مثال يضرب عن سوء الملجأ وسوء المصير .

وهكذا حال من يلجأ لغير الله . . وهنا بلاغة الآية :

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) ٤١ ـ العنكبوت

وجاءت خاتمة الآية عبارة . . « لو كانوا يعلمون » . . اشارة الى أنه علم لن يظهر الا متأخرا . . ومعلوم أن هذه الأسرار البيولوجية لم تظهر الا متأخرة .

كذلك نجد في سورة الكهف .

(ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) ٢٥ ـ الكهف

ونعرف الآن أن ثلاثمائة سنة بالتقويم الشمسي تساوي ثلاثمائة وتسعا بالتقويم القمري باليوم والدقيقة والثانية .

وفي سورة مريم يحكي الله تبارك وتعالى عن مريم وكيف جاءها المخاض فآوت الى جذع النخلة وهي تتمنى الموت فناداها المنادي أن تهز بجذع النخلة وتأكل ما يتساقط من رطب جني .

(فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا) ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ مريم

ولماذا الرطب ؟ !

ان أحدث بحث علمي عن الرطب يقول أن فيه مادة قابضة للرحم تساعد على الولادة وتساعد على منع النزيف بعد الولادة مثل مادة Oxytocin وأن فيه مادة ملينة . . ومعلوم طبيا أن الملينات النباتية تفيد في تسهيل وتأمين عملية الولادة بتنظيفها للقولون :

إن الحكمة العلمية لوصف الرطب وتوقيت تناول الرطب مع مخاض الولادة فيه دقة علمية واضحة .

هذه الأمثلة من الصدق العلمي والصدق المجازي والصدق الحرفي هو ما أشار اليه الله سبحانه واصفا القرآن بأنه :

(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ٤٢ ـ فصلت

وبأنه :

(لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ٨٢ ـ النساء

اختلافا بين الآيات وبين بعضها بمعنى تناقضها . . واختلافا عن الحقائق الثابتة التي سوف تكشفها العلوم . . وكلا الاختلافين نجده دائما في الكتب المؤلفة . . ولهذا يحرص المؤلف على أن يضيف أو يحذف أو يعدل كلما أصدر طبعة جديدة من كتبه . . ونرى النظريات تتلو بعضها البعض مكذبة بعضها البعض . . ونرى المؤلف مهما راعى الدقة يقع في التناقض . . وهي عيوب لا نجدها في القرآن .

وهو بعد ذلك معجزة لأنه يخبرك عن ماض لم يؤرخ ويتنبأ بمستقبل لم يأت .

وقد صدقت نبوءات القرآن المتعددة .

عن انتصار الروم بعد هزيمتهم .

(غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ الروم

و « بضع » في اللغة هي ما بين ثلاث وتسع . . وقد جاء انتصار الروم بعد سبع سنين .

وعن انتصار بدر

(سيهزم الجمع ويولون الدبر) ٤٥ ـ القمر

وعن رؤيا دخول مكة :

(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق . . لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين) ٢٧ ـ الفتح

وقد كان .

وما زالت في القرآن نبوءات نراها تتحقق أمام أعيننا . . فهذا ابراهيم يدعو ربه :

(ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) ٣٧ ـ ابراهيم

لقد دعا بالرزق لهذا الوادي الجديب .

ثم جاء وعد الله لأهل مكة بالرخاء والغنى حينما أمرهم بمنع المشركين من زيارة البيت فخافوا البوار الاقتصادي والكساد ، « وكان أهل مكة يعتمدون في رواجهم على حج البيت » . . فقال ليطمئنهم :

(وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) ٢٨ ـ التوبة

وهو وعد نراه الآن يتحقق أمامنا في البترول الذي يتدفق من الصحراء بلا حساب وترتفع أسعاره في جنون يوما بعد يوم . . ثم في كنوز اليورانيوم التي تخفيها تلك الصحارى بما يضمن لها الرخاء الى نهاية الزمان .

ثم نرى القرآن يحدثنا عن الغيب المطلسم من أسرار الجن والملائكة مما لم يكشف الا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف . . فاذا رأى هؤلاء فهم لا يرون الا ما يوافق كلمة القرآن واذا طالعوا لا يطالعون الا ما يطابق أسراره .

ثم هو يقدم لنا الكلمة الأخيرة في السياسة والأخلاق ونظم الحكم والحرب والسلم والاقتصاد والمجتمع والزواج والمعاشرة ، ويشرع لنا من محكم الشرائع ما يسبق به ميثاق حقوق الانسان كل ذلك في أسلوب منفرد وعبارة شامخة وبنيان جمالي وبلاغي هو نسيج وحده في تاريخ اللغة .

سألوا ابن عربي عن سر اعجاز القرآن فأجاب بكلمة واحدة هي : « الصدق المطلق » فكلمات القرآن صادقة صدقا مطلقا ، بينما أقصى ما يستطيعه مؤلف هو أن يصل الى صدق نسبي وأقصى ما يطمع فيه كاتب هو أن يكون صادقا حسب رؤيته . . ومساحة الرؤية دائما محدودة ومتغيرة من عصر الى عصر . . كل واحد منا يحيط بجانب من الحقيقة وتفوته جوانب ، ينظر من زاوية وتفوته زوايا . . وما يصل اليه من صدق دائما صدق نسبي . . أما صاحب العلم المحيط والبصر الشامل فهو الله وحده . . وهو وحده القادر على الصدق المطلق . . ولهذا نقول على القرآن أنه من عند الله لأنه اصاب الصدق المطلق في كل شيء .

سألوا محمدا عليه الصلاة والسلام عن القرآن فقال :

« فيه نبأ ما قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما بعدكم وهو الفصل ليس بالهزل وهو الذكر الحكيم وهو حبل الله المتين .

وهو الصراط المستقيم . من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . وهو الذي لا تلتبس به الألسن . ولا تزيغ به العقول . ولا يخلق على كثرة الرد . ولا يشبع منه العلماء . ولا تنقضي عجائبه »

وهذا هو كتابنا يا صديقي .

ولهذه الصفات مجتمعة لا يمكن أن يكون مؤلفا .

● شكوك

قال صاحبي :

ـ تقول إن القرآن لا يتناقض مع نفسه فما بالك بهذه الآية

(فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ٢٩ ـ الكهف

والآية الأخرى التي تنقضها :

(وما تشاؤون الا أن يشاء الله) ٣٠ ـ الانسان

ثم نجد القرآن يقول عن حساب المذنبين أنهم سوف يسألون

(ستكتب شهادتهم ويسألون) ١٩ ـ الزخرف

(وأنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) ٤٤ ـ الزخرف

ومرة أخرى يقول :

(ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) ٧٨ ـ القصص

وأنهم سوف يعرفون بسيماهم .

(فيؤخذ بالنواصي والأقدام) ٤١ ـ الرحمن

ومرة يقول أنه لا أحد سوف يشد وثاق المجرم

(ولا يوثق وثاقه أحد) ٢٦ ـ الفجر

بمعنى أن كل واحد سوف يتكفل بتعذيب نفسه .

(كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ١٤ - الاسراء

ومرة يقول :

(ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) ٣٢ - الحاقة

قلت له :

- هذه ليست مناقضات . . ولنفكر فيها معا ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . . آية صريحة تشير الى حرية العبد واختياره . . ولكن هذه الحرية لم نأخذها من الله غصبا وغلابا . . وانما أعطاها لنا الله بمشيئته . فتأتي الآية الثانية لشرح ذلك فتقول :

(وما تشاؤون الا أن يشاء الله)

أي أن حرية العبد ضمن مشيئة الرب وليست ضدها . . أي أن حرية العبد يمكن أن تناقض الرضا الالهي فتختار المعصية ولكنها لا يمكن أن تناقض المشيئة . . فهي تظل دائما ضمن المشيئة ولو خالفت الرضا . . وهي نقطة دقيقة شرحناها في موضوع المخير والمسير . . وقلنا أن التسيير الالهي هو عين التخيير لأن الله يختار للعبد من جنس نيته وقلبه ، ومعنى ذلك أنه يريد للعبد نفس ما أراد العبد لنفسه بنيته واختيار قلبه . . أي أن العبد مسير الى ما اختار . . ومعنى ذلك أنه لا اكراه وأنه لا ثنائية ولا تناقض . . وأن التسيير هو عين التخيير . . وهي مسألة من أدق المسائل في فهم لغز المخير والمسير . . وما تسميه أنت تناقضا هو في الحقيقة جلاء ذلك السر .

أما الآيات الواردة عن الحساب فان كل آية تعني طائفة مختلفة فهناك من سوف يسأل وتطلب شهادته وهناك من ستكون ذنوبه من الكثرة بحيث

تطفح على وجهه وهؤلاء من الذين سوف يعرفون بسيماهم فيؤخــذوا بالنواصي والأقدام ، وهناك المعاند المنكر الذي سوف تشهد عليه يداه ورجلاه .

(اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) ٦٥ ـ يس

وهناك من سيكون حسيبا على نفسه يعذبها بالندم ويشد وثاقها بالحسرة . . وهو الذي لا يوثق وثاقه أحد .

وهناك أكابر المجرمين الجبارين الذين سوف يكذبون على الله وهم يواجهونه ويحلفون الكذب وهم في الموقف العظيم .

(يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء الا أنهم هم الكاذبون) ١٨ ـ المجادلة

وهؤلاء هم الذين سوف يسحبون على وجوههم ويوثقون في السلاسل .

وأبو حامد الغزالي يفسر هذه السلاسل بأنها سلاسل الأسباب .

ـ وما رأيك في كلام القرآن عن العلم الالهي .

(ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فـي الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تـموت) ٣٤ ـ لقمان

يقول القرآن إن الله اختص نفسه بهذا العلم لا يعلمه غيره .

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) ٥٩ ـ الأنعام

فما بالك الآن بالطبيب الذي يستطيع أن يعلم ما بالأرحام ويستطيع أن يتنبأ إن كان ذكرا أم انثى . . وما بالك بالعلماء الذين انزلوا المطر الصناعي بالأساليب الكيماوية .

ـ لم يتكلم القرآن عن انزال المطر وانما عن انزال الغيث وهو المطر الغزير الكثيف الذي ينزل بكميات تكفي لتغيير مصير أمة واغاثتها ونقلها من حال الجدب الى حال الخصب والرخاء . والمطر بهذه الكميات لا يمكن انزاله بتجربة .

أما علمَ الله لما في الأرحام فهو علم كلي محيط وليس فقط علما بجنس المولود هل خسر ذكر أم أنثى وانما علم بمن يكون ذلك المولود وما شأنه وماذا سيفعل في الدنيا وما تاريخه من يوم يولد الى يوم يموت . . وهو أمر لا يستطيع أن يعلمه طبيب .

ـ وما حكاية كرسي الله الذي تقولون أنه وسع السماوات والأرض . . وعرش الله الذي يحمله ثمانية .

ـ إن عقلك يسع السماوات والأرض وأنت البشر الذي لا تذكر . . فكيف لا يسعها كرسي الله . . والأرض والشمس والكواكب والنجوم والمجرات محمولة بقوة الله في الفضاء . . فكيف تعجب لحمل عرش .

ـ وما هو الكرسي وما العرش .

ـ قل لي ما الالكترون أقل لك ما الكرسي . . قل لي ما الكهرباء . . قل لي ما الجاذبية . . قل لي ما الزمان . . إنك لا تعرف ماهية أي شيء لتسألني ما الكرسي وما العرش . . إن العالم مليء بالأسرار وهذه بعض أسراره .

ـ والنملة التي تكلمت في القرآن وحذرت بقية النمل من قدوم سليمان وجيشه

(قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده) ١٨ ـ النمل

ـ لو قرأت القليل عن علم الحشرات الآن لما سألت هذا السؤال . . ان علم الحشرات حافل بدراسات مستفيضة عن لغة النمل ولغة النحل .

ولغة النمل الآن حقيقة مؤكدة . . فما كان من الممكن أن تتوزع الوظائف في خلية من مئات الألوف ويتم التنظيم وتنقل الأوامر والتعليمات بين هذا الحشد الحاشد لولا أن هناك لغة للتفاهم ولا محل للعجب في أن نملة عرفت سليمان . . ألم يعرف الانسان الله .

ـ وكيف يمحو الله ما يكتب في لوح قضائه .

(يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)

أيخطىء ربكم كما نخطىء في الحساب فنمحو ونثبت . . أم يراجع نفسه كما نراجع أنفسنا .

الله يمحو السيئة بأن يلهمك بالحسنة ويقول في كتابه

(ان الحسنات يذهبن السيئات) ١١٤ ـ هود

ويقول عن عباده الصالحين :

(وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة) ٧٣ ـ الأنبياء

ويذلك يمحو الله دون أن يمحو وهذا سر الآية ٣٩ سورة الرعد التي ذكرتها

ـ وما رأيك في الآية ؟

(وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ٥٦ ـ الذاريات

هل كان الله في حاجة لعبادتنا ؟ !

ـ بل نحن المحتاجون لعبادته .

هل تعبد المرأة الجميلة حباأم تكليف . . أم أنك تلتذ بهذا الحب وتنتشي وتسعد لتذوقك لجمالها . . كذلك الله وهو الأجمل من كل جميل اذا عرفت جلاله وجماله وقدره عبدته ووجدت في عبادتك له غاية السعادة والنشوة .

إن العبادة عندنا لا تكون الا عن معرفة . . والله لا يعبد الا بالعلم . . ومعرفة الله هي ذروة المعارف كلها ونهاية رحلة طويلة من المعارف تبدأ منذ الميلاد وأول ما يعرف الطفل عند ميلاده هو ثدي أمه وتلك أول لذة ثم يتعرف على أمه وأبيه وعائلته ومجتمعه وبيئته ثم يبدأ في استغلال هذه البيئة لمنفعته فاذا هي ثدي آخر كبير يدر عليه الثراء والمغانم

والملذات فهو يخرج من الأرض الذهب والماس ومن البحر اللآلىء ومن الزرع الفواكه والثمار وتلك هي اللذة الثانية في رحلة المعرفة ثم ينتقل من معرفته لبيئته الأرضية ليخرج الى السماوات ويضع رجله على القمر ويطلق سفائنه الى المريخ في ملاحة نحو المجهول ليستمتع بلذة أخرى أكبر هي لذة استطلاع الكون ثم يرجع ذلك الملاح ليسأل نفسه . . ومن أنا الذي عرفت هذا كله . . ليبدأ رحلة معرفة جديدة الى نفسه بهدف معرفة نفسه والتحكم في طاقاتها وادارتها لصالحه وصالح الآخرين وتلك لذة أخرى . ثم تكون ذروة المعارف بعد معرفة النفس هي معرفة الرب الذي خلق تلك النفس . وبهذه المعرفة الأخيرة يبلغ الأنسان ذروة السعادات لأنه يلتقي بالكامل المتعال الأجمل . كل جميل . . تلك هي رحلة العابد على طريق العبادة . . وكلها ورود ومسرات . وأذا كانت في الحياة مشقة . . فلأن قاطف الورود لا بد أن تدمي يديه الأشواك . . والطامع في ذرى اللانهاية لا بد أن يكدح اليها . . ولكن وصول العابد الى معرفة ربه وانكشاف الغطاء عن عينيه . . ما أروعه . . يقول الصوفي لابس الخرقة . . « نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف » تلك هي لذة العبادة الحقة . . وهي من نصيب العابد . . ولكن الله في غنى عنها وعن العالمين . . ونحن لا نعبده بأمر تكليف ولكنا نعبده لأننا عرفنا جماله وجلاله . . ونحن لا نجد في عبادته ذلا بل تحررا وكرامة . . تحررا من كل عبوديات الدنيا . . تحررا من الشهوات والغرائز والأطماع والمال . . ونحن نخاف الله فلا نعود نخاف أحدا بعده ولا نعود نعبأ بأحد . . خوف الله شجاعة . . وعبادته حرية . . والذل له كرامة . . ومعرفته يقين وتلك هي العبادة . . نحن الذين نجني أرباحها

ومسراتها . . أما الله فهو الغني عن كل شيء . . انما خلقنا الله ليعطينا لا ليأخذ منا . . خلقنا ليخلع علينا من كمالاته فهو السميع البصير وقد أعطانا سمعا وبصرا وهو العليم الخبير وقد أعطانا العقل لنتزود من علمه والحواس لنتزود من خبرته وهو يقول لعبده المقرب في الحديث القدسي :

(عبدي اطعني اجعلك ربانيا تقل للشيء كن فيكون)

ألم يفعل هذا لعيسى عليه السلام . . فكان عيسى يحيي الموتى بأذنه ويخلق من الطين طيرا بأذنه ويشفي الأعمى والأبرص بأذنه .

العبودية لله اذن هي عكس العبودية في مفهومنا . . فالعبودية في مفهومنا هي أن يأخذ السيد خير العبد أما العبودية لله فهي على العكس أن يعطي السيد لعبده ما لا حدود له من النعم ويخلع عليه ما لا نهاية من الكمالات . . فحينما يقول الله :

(ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ٥٦ ـ الذاريات

فمعناها الباطن ما خلقت الجن والانس الا لأعطيهم وامنحهم حبا وخيرا وكرامة وعزة وأخلع عليهم ثوب التشريف والخلافة .

فالسيد الرب غني مستغن عن عبادتنا . . ونحن المحتاجون الى هذه العبادة والشرف والمواهب والخيرات التي لا حد لها .

فالله الكريم سمح لنا أن ندخل عليه في أي وقت بلا ميعاد ونبقى في حضرته ما شئنا وندعوه ما وسعنا . . بمجرد أن نبسط سجادة الصلاة ونقول « الله أكبر » نصبح في حضرته نطلب منه ما نشاء .

أين هو الملك الذي نستطيع ان ندخل عليه بلا ميعاد ونلبث في

حضرته ما نشاء ؟ !

وفي ذلك يقول مولانا العبد الصالح الشيخ محمد متولي الشعراوي في شعر جميل :

حسب نفسي عزا انني عبدٌ
يحتفل بي بلا مواعيد رب
هو في قدسه الأعز ولكن
أنا ألقى متى وحين أحب

ويقول : أروني صنعة تعرض على صانعها خمس مرات في اليوم « يقصد الصلوات الخمس » وتتعرض للتلف ! .

وهذه بعض المعاني الباطنة في الآية التي أثارت شكوكك :

(وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) .

ولو تأملتها لما أثارت فيك الا الذهول والاعجاب .

● موقف الدين من التطور

قال صاحبي :

ـ موقفك اليوم سيكون صعبا فعليك أن تثبت أن خلق الانسان جاء على طريقة جلا جلا . . أمسك الخالق قطعة طين ثم عجنها في يده ونفخ فيها فاذا بها آدم . . وهو كلام تخالفك فيه بشدة علوم التطور التي تقول أن صاحبك آدم جاء نتيجة سلسلة من الأطوار الحيوانية السابقة وأنه ليس مقطوع الصلة بأفراد عائلته من الحيوانات وأنه والقرود أولاد عمومة يلتقون معا في سابع جد . . وأن التشابه الأكيد في تفاصيل البنية التشريعية للجميع يدل على أنهم جميعا أفراد أسرة واحدة .

قلت وأنا أستعد لمعركة علمية دسمة :

ـ دعني أصحح معلوماتك أولا فأقول لك أن الله لم يخلق آدم على طريقة جلا جلا . . ها هنا قطعة طين ننفخ فيها فتكون آدم . . فالقرآن يروي قصة مختلفة تماما عن خلق آدم قصة يتم فيها الخلق على مراحل وأطوار وزمن الهي مديد والقرآن يقول أن الانسان لم يخرج من الطين مباشرة وانما خرج من سلالة جاءت من الطين .

(ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) ١٢ ـ المؤمنون

وأن الانسان في البدء لم يكن شيئا يذكر :

(هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) ٢١ ـ الانسان

وان خلقه جاء على أطوار .

(مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا)

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس) ١١ ـ الأعراف

(واذ قال ربك للملائكة أني خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) ٧١ ـ ٧٢ ص

معنى ذلك أن هناك مراحل بدأت بالخلق ثم التصوير . . ثم التسوية ثم النفخ . . « وثم » بالزمن الالهي معناها ملايين السنين .

(إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ٤٧ ـ الحج

أنظر الى هذه المراحل الزمنية للخلق في سورة السجدة . . يقول الله سبحانه أنه :

(بدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ السجدة

في البدء كان الطين ثم جاءت سلالة من ماء مهين هي البدايات الأولى للانسان التي لم تكن شيئا مذكورا ثم التسوية والتصوير ثم نفخ الروح التي بها أصبح للانسان سمع وبصر وفؤاد . . وأصبح آدما . . فآدم اذن نهاية سلسلة من الأطوار وليس بدءا مطلقا على طريقة جلا جلا .

(والله أنبتكم من الأرض نباتا) ١٧ - نوح

هنا عملية انبات بكل ما في الانبات من أطوار ومراحل وزمن .

ولكن اللغز الحقيقي هو .. ماذا كانت تلك المراحل بالضبط وماذا كانت تلك الأطوار .

هل كل شجرة الحياة من أب واحد .

هي كلها من الطين بحكم التركيب الكيميائي . . وكلها تنتهي بالموت إلى أصلها الترابي . . هذه حقيقة .

ولكننا نقصد من كلمة أب شيئا أكثر من الأصل الطيني

السؤال هو هل تولدت من الطين خلية أولى تعددت وأنجبت كل تلك الأنواع والفصائل النباتية والحيوانية بما في ذلك الانسان .

أم أنه كانت هناك بدايات متعددة . . بداية تطورت الى نباتات وبداية تطورت الى فرع من فروع الحيوان كالاسفنج مثلا وبداية أخرى خرج منها فرع آخر كالاسماك وبداية خرجت منها الزواحف وبداية خرجت منها الطيور وبداية خرجت منها الثدييات وبداية خرج منها الانسان وبذلك يكون للانسان جد منفصل ويكون لكل نوع جد خاص به .

إن التشابه التشريحي للفروع والأنواع والفصائل لا ينفي خروج كل نوع من بداية خاصة وانما يدل هذا التشابه التشريحي في الجميع على وحدة الخالق وأن صانعها جميعا واحد لأنه خلقها جميعا من خامة واحدة وبأسلوب واحد وبخطة واحدة هذه هي النتيجة الحتمية . . ولكن

خروجها كلها من أب واحد ليس نتيجة محتمة لتشابهها التشريحي . . فوسائل المواصلات تتشابه فيما بينها العربة والقطار والترام والديزل كلها تقوم على أسس هندسية وتركيبية متشابهة دالة بذلك على أنها من اختراع العقل البشري . . ولكن هذا لا يمنع أن كل صنف منها جاء من أب مستقل ومن فكرة هندسية مستقلة .

كما أننا لا يصح أن نقول أن عربة اليد تطورت تلقائيا بحكم القوانين الباطنة فيها الى عربة حنطور ثم الى عربة فورد ثم الى قطار ثم الى ديزل . . فالواقع غير ذلك . . وهو أن كل طور من هذه الأطوار جاء بطفرة ذهنية في عقل المخترع وقفزة ابداع في عقل المهندس . . لم يخرج نوع من آخر مع أن الترتيب الزمني قد يؤيد فكرة خروج نوع من نوع . . ولكن ما حدث كان غير ذلك فكل نوع جاء بطفرة ابداعية من العقل المخترع وبدأ مستقلا .

وهذه هي أخطاء داروين والمطبات والثغرات التي وقع فيها حينما صاغ نظريته .

ودعنا نتذكر معا ما قال داروين في كتابه « أصل الأنواع » :

كان أول ما اكتشفه داروين أثناء رحلته بالسفينة بيجل هي الخطة التشريحية الواحدة التي بنيت عليها كل الفصائل الحيوانية . . فالهيكل العظمي واحد في أغلب الحيوانات الفقرية الذراع في القرد هو نفس الجناح في الطائر هو نفس الجناح في الخفاش كل عظمة هنا تقابلها عظمة تناظرها هناك مع تحورات طفيفة لتلائم الوظيفة فالعظام في الطيور رقيقة وخفيفة ومجوفة وهى مغطاة بالريش . . ثم نجد رقبة الزرافة الطويلة بها سبع

فقرات ورقبة الانسان سبع فقرات ورقبة القنفذ التي لا تذكر من فرط قصرها هي الأخرى سبع فقرات وهناك خمس أصابع في يد الانسان ونجد نفس التخميس في أصابع القرد والأرنب والضفدعة والسحلية . . وفترة الحمل في الحوت والقرد والانسان تسعة أشهر وفترة الأرضاع في الجميع سنتان وفقرات الذيل في القرد نجدها في الانسان متداخجة ملتصقة فيما يسمى بالعصعص ونجد عضلات الذيل قد تحورت في الانسان الى قاع متين للحوض . . ثم نجد القلب بغرفه الأربع في الحصان والحمار والأرنب والحمامة والانسان ونفس الخطة في تفرع الشرايين والأوردة . . ثم نجد نفس الخطة في الجهاز الهضمي ، البلعوم ثم المعدة ثم الاثنا عشر ثم الامعاء الدقيقة ثم الامعاء الغليظة ثم الشرج والجهاز التناسلي نفس الخصية والمبيض وقنوات الخصية وقنوات المبيض وكذلك الجهاز البولي نفس الكلية والحالب وحويصلة البول . . والجهاز التنفسي . . القصبة الهوائية والرئتين . ونجد أن الرئة في البرمائيات هي نفس كيس العوم في السمكة .

كان طبيعيا بعد هذا أن يتصور داروين أن الحيوانات كلها أفراد أسرة واحدة تفرقت بهم البيئات فتكيفت كل فصيلة مع بيئتها . . الحوت في المنطقة الجليدية لبس معطفا من الشحم . . والدببة لبست الفراء وانسان الغابة في الشمس الاستوائية أسود جلده فأصبح كالمظلة الواقية ليقيه الشمس . . وسحالى الكهوف ضمرت عيونها لأنها لا تجد لها فائدة في الظلام فأصبحت عمياء بينما سحالى البراري نراها مبصرة . والحيوانات التي نزلت الماء طورت أطرافها الى زعانف والتي غزت الجو طورت أطرافها الى أجنحة وزواحف الأرض طورت أطرافها الى أرجل .

ثم ألا يحكي الجنين القصة ففي مرحلة من مراحل نموه نراه يتنفس بالخياشيم ثم تضمر الخياشيم وتظهر فيه الرئتان وفي مرحلة نجد له ذيلا ثم يضمر الذيل ويختفي وفي مرحلة نراه يكتسي بالشعر ثم ينحسر بعد ذلك الشعر عن جسمه .

ثم ألا تحكي لنا طبقات الصخور بما حفظت لنا من حفريات قصة متسلسلة الحلقات عن ظهور واختفاء هذه الأنواع الواحد بعد الآخر من الحيوانات البسيطة وحيدة الخلية الى عديدة الخلايا الى الرخويات الى القشريات الى الأسماك الى البرمائيات الى الزاحفات الى الطيور الى الثدييات . . وأخيرا الى الانسان .

ولقد أصاب داروين وأبدع حينما وضع هذه المقدمة القيمة في التشابة التشريحي بين الحيوانات وأصاب حينما قال بالتطور .

ولكنه أخطأ حينما حاول أن يفسر عملية الارتقاء وأخطأ حينما حاول أن يتصور مراحل هذا الارتقاء وتفاصيله .

كان تفسير داروين لعملية الارتقاء أنه يتم بالعوامل المادية التلقائية وحدها . . حيث تتقاتل الحيوانات بالناب والمخلب في صراع الحياة الدموي الرهيب فيموت الضعيف ويكون البقاء دائما للأصلح . . تلك الحرب الناشبة في الطبيعة هي التي تفرز الصالح والقوي وتشجعه وتبقي على نسله وتفسح أمامه سبل الحياة .

واذا كانت هذه النظرية تفسر لنا بقاء الأقوى فانها لا تفسر لنا بقاء الأجمل . . فان الجناح المنقوش لا يمتاز بأي صلاحيات مادية أو معاشية

عن الجناح الأبيض . وليس أكفأ منه في الطيران .

واذا قلنا أن الذكر يفضل الجناح المنقوش . . في التزاوج لسوف نسأل ولماذا . . ما دام هذا النقش لا يمثل أي مزيد من الكفاءة .

واذا دخل تفضيل الأجمل في الحساب فان النظرية المادية تنهار من أساسها .

وتبقى النظرية بعد ذلك عاجزة عن تفسير لماذا خرج من عائلة الحمار شيء كالحصان ولماذا خرج من عائلة الوعل شيء رقيق مرهف وجميل كالغزال . . مع أنه أقل قوة وأقل احتمالا كيف نفسر جناح الهدهد وريشة الطاووس وموديلات الفراش بألوانها البديعة ونقوشها المذهلة . . نحن هنا أمام يد مصور فنان ماهر يتفنن ويبدع . . ولسنا أمام عملية غليظة كصراع البقاء وحرب المخلب والناب .

والخطأ الثاني في نظرية التطور جاء بعد ذلك من أصحاب نظرية الطفرة .

والطفرات هي الصفات الجديدة المفاجئة التي تظهر في النسل نتيجة تغيرات غير محسوبة في عملية تزاوج الخلية الانثوية والخلية الذكرية ولقاء الكروموسومات لتحديد الصفات الوراثية .

وأحيانا تكون هذه الصفات الجديدة صفات ضارة كالمسوخ والتشوهات وأحيانا تكون طفرات مفيدة للبيئة الجديدة للحيوان كأن تظهر للحيوان الذي ينزل الماء أرجل مبططة . . فتكون صفة جديدة مفيدة لأن الأرجل المبططة أنسب للسباحة فتشجع الطبيعة هذه الصفة وتنقلها الى

الأجيال الجديدة وتقضي على الصفة القديمة لعدم صلاحيتها وبذلك يحدث الارتقاء وتتطور الأرجل العادية الى أرجل غشائية .

وخطأ هذه النظرية أنها أقامت التطور على أساس الطفرات والأخطاء العشوائية . . وأسقطت عملية التدبير والابداع تماما .

ولا يمكن أن تصلح هذه الطفرات العشوائية أساسا لما نرى حولنا من دقة وابداع واحكام في كل شيء .

إن البعوضة تضع بيضها في المستنقع . . وكل بيضة تأتي الى الوجود مزودة بكيسين للطفو .

من أين تعلمت البعوضة قوانين أرشميدس لتزود بيضها بهذه الأكياس الطافية .

وأشجار الصحارى تنتج بذورا مجنحة تطير مع الرياح أميالا وتنتثر في مساحات واسعة بلا حدود .

من أين تعلمت أشجار الصحارى قوانين الحمل الهوائي لتصنع لنفسها هذه البذور المجنحة التي تطير مئات الأميال بحثا عن أراض ملائمة للانبات .

وهذه النباتات المفترسة التي تصطنع لنفسها الفخاخ والشراك الخداعية العجيبة لتصيد الحشرات وتهضمها وتأكلها . بأي عقل استطاعت أن تصطنع تلك الحيل .

نحن هنا أمام عقل كلي يفكر ويبتكر لمخلوقاته ويبدع لها أسباب الحيل .

لا يمكن تصور حدوث الارتقاء بدون هذا العقل المبدع .

(الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ٥٠ ـ طه

والعقبة الثالثة أمام نظرية داروين . . هي ما اكتشفناه الآن باسم الخريطة الكروموسومية . أو خريطة الجينات . . ونحن نعلم الآن أن لكل نوع حيواني خريطة كروموسومية خاصة به ويستحيل أن يخرج نوع من نوع بسبب اختلاف هذه الخريطة الكروموسومية .

نخلص من هذا الى أن نظرية داروين تعثرت واذا كان التشابه التشريحي بين الحيوانات حقيقة متفقا عليها .

واذا كان التطور أيضا حقيقة . . الا أن مراحل هذا التطور وكيفياته ما زالت لغزا .

هل كانت هناك بدايات مستقلة أم أن بعض الفروع تلتقي عند أصول واحدة .

والتطور وارد باللفظ الصريح في القرآن . . كما أن مراحل الخلق والتصوير والتسوية ونفخ الروح واردة .

ولكن لم يستقر العلم على نظرية ثابتة لتلك المراحل بعد . . واذا عدنا لسورة السجدة التي تحكي عن الله أنه :

(بدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ السجدة

فان معنى الآية صريح في أن البدايات الأولى للانسان التي جاء منها آدم فيما بعد وهي تلك التي جاء نسلها من ماء مهين . . لم يكن لها سمع ولا أبصار ولا أفئدة .

وانما جاءت هذه الأبصار والأسماع والأفئدة بعد نفخ الروح وهي آخر مراحل خلق آدم .

هي إذن بدايات أشبه بالحياة الحيوانية المتخلفة .

(هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) ٢١ - الانسان

ولا أظن أن هذا يختلف عن العلوم التي تتحدث عنها .

والحقيقة بعد هذا ما زالت لغزا . . ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه كشف الحقيقة . . وقد يكون ما حدث شيئا غير كل ما قلنا وغير كل ما تصور العلماء والسؤال ما زال مفتوحا للبحث وكل ما جاء به العلم فروض .

● كلمة
لا إله إلا اللّه

قال صاحبي :

- ألست معي في أنكم تبالغون كثيرا في استخدام كلمة لا اله الا الله وكأنها مفتاح لكل باب . . تشيعون بها الميت وتستقبلون الوليد وتطبعونها على الأختام وتنقشونها على القلائد وتصكون بها العملات وتعلقونها على الجدران . من ينطق بها منكم تقولون أن جسمه أعتق من النار . . فاذا نطق بها مائة ألف مرة دخل الجنة وكأنها طلسم سحري أو تعويذة لطرد الجن أو قمقم لحبس المردة . . ثم هذه الحروف التي لا تعرفون لها معنى . . أ . . ل . م . كهيعص . . طسم . . حم . . الر .

هل أنجو من العذاب اذا قلت لا اله الا الله . اذن فاني أقولها وأشهدك وأشهد الحضور على ذلك . . لا اله الا الله . . هل انتهى الأمر .

- بل لم تقل شيئا .

إن لا إله الا الله لمن يعمل بها وليست لمن يشقشق بها لسانه لا إله الا الله منهج عمل وخطة حياة وليست مجرد حروف . . ودعنا نفكر قليلا في معناها . . إننا حينما نقول لا إله الا الله معنى أنه لا معبود الا الله وبين لا

والا بين النفي والاثبات في العبارة بين هاتين الدفتين تقع العقيدة كلها لا النافية تنفي الألوهية عن كل شيء . . عن كل ما نعبد من مشتهيات في الدنيا . . عن المال والجاه والسلطان واللذات وترف العيش والنساء الباهرات والعز الفاره . . لكل هذا نقول لا . . لا نعبدك . . لست الها . . ثم نقول لا لنفوسنا التي تشتهي تلك الأشياء لأن الانسان يعبد نفسه في العادة ويعبد رأيه ويعبد هواه واختياره ومزاجه ويعبد ذكاءه ومواهبه وشهرته ويتصور أن بيده مقاليد الأمور وأقدار الناس والمجتمع . . ويجعل من نفسه الهاً دون أن يدري . . لهذه النفس نحن نقول لا . . لا نعبدك . . لست الها .

نقول « لا » ـ للمدير والرئيس والحاكم . . لا لست الها .

ومعنى كلمة « اله » أي « فاعل » . . والفاعل بحق عندنا هو الله ، أما كل هذه الأشياء فوسائط وأسباب . المدير والوزير والرئيس والمال والجاه والسلطان والنفس بذكائها ومواهبها . . لكل هذا نقول لا . . لست الها .

« الا » ـ واحد نستثنيه ونثبت له تلك الفاعلية والقدرة هو الله .

وبين لا والا بين هذا النفي وهذا الأثبات تقع العقيدة كلها فمن كان مشغولا بجمع المال وتكديس الثروات وتملق السلطان والتزلف للرؤساء وتحري اللذات واتباع هوى نفسه وتعشق رأيه والتعصب لوجهة نظره . . فهو لم يقل لا لكل هذه المعبودات وهو ساجد في محرابها دون أن يدري وحينما يقول لا اله الا الله فهو يقولها كاذبا . . يقول بلسانه ما لا يفعل بيديه ورجليه .

ومعنى « لا اله الا الله » أنه لا حسيب ولا رقيب الا الله . . هو وحده الجدير بالخشية والخوف والمراقبة . . فمن كان يخاف المرض ومن كان يخاف الميكروب ومن كان يخاف عصا الشرطي وجند الحاكم فانه لم يقل « لا » . . لكل تلك الآلهة الوهمية . . وانما هو ما زال ساجدا لها وقد أشرك مع خالقه كل تلك الآلهة المزيفة . . فهو كاذب في كلمة « لا اله الا الله » .

ومعنى ذلك أن « لا اله الا الله » عهد ودستور ومنهج حياة .

والمقصود بها . . العمل بها .

فمن عمل بها كانت له طلسما بالفعل يفتح له كل الأبواب العصية . . وكانت نجاة في الدنيا والآخرة ومدخلا الى الجنة .

أما نطق اللسان بدون تصديق القلب وعمل الجوارح . . فانه لا يغني .

و « لا اله الا الله » تعني أكثر من هذا موقفا فلسفيا .

يقول الدكتور زكي نجيب محمود أن « شهادة لا اله الا الله » تتضمن الاقرار بثلاث حقائق . . أن الشاهد موجود والمشهود موجود . والحضور الذين تلقى أمامهم الشهادة موجودون أيضا أي أنها اقرار صريح بأن الذات والله والآخرين لهم جميعا وجود حقيقي .

وبهذا يرفض الاسلام الفلسفة المثالية كما يرفض الفلسفة المادية في ذات الوقت . . يرفض اليمين واليسار معا ويختار موقفا وسطا .

يرفض المثالية الفلسفية . . لأن المثالية الفلسفية لا تعترف بوجود الآخرين ولا بوجود العالم الموضوعي كحقيقة خارجية مستقلة عن العقل . . وانما كل شيء في نظر الفلسفة المثالية يجري كأنه حلم في دماغ . . أو أفكار في عقل . . أنت والراديو والشارع والمجتمع والصحيفة والحرب كلها حوادث ومرائي وأحلام تجري في عقلي . . لا وجود حقيقي للعالم الخارجي .

وهذا الموقف المثالي المتطرف يرفضه الاسلام وترفضه الشهادة لأنها كما قلنا اقرار صريح بأن الشاهد والمشهود والحضور الذين تلقى أمامهم الشهادة أي الذات والله والآخرين حقائق مقررة .

كما يرفض الاسلام أيضا الفلسفة المادية لأن الفلسفة المادية تعترف بالعالم الموضوعي ولكنها تنكر ما وراءه . . تنكر الغيب والله .

والاسلام بهذا يقدم فلسفة واقعية وفكرا واقعيا فيعترف بالعالم الموضوعي ثم يضيف الى هذا العالم كل الثراء الذي يتضمنه الوجود الالهي الغيبي . . ويقدم تركيبا جدليا جامعا بين فكر اليمين وفكر اليسار في فلسفة جامعة ما زالت تتحدى كل اجتهاد المفكرين فتسبق ما سطروا من نظريات ظنية لا تقوم على يقين .

شهادة « لا اله الا الله » تعني اذن منهج حياة وموقفا فلسفيا .

ولهذا فأنت تكذب وأنت الرجل المادي الذي اخترت موقفا فلسفيا ماديا وأنت تنطق بالشهادة كذبتين :

الكذبة الأولى ـ أنك تشهد بما ينافي فلسفتك .

والكذبة الثانية ـ أنك لا تعمل بهذه الشهادة في حياتك قدر خردلة .

أما حكاية أ . ل . م . وكهيعص . حم . ألر . . فدعني أسألك . . وما حكاية س ص ولـوغاريتم ومعادلة الطاقة ط = ك × س٢ وهي ألغاز وطلاسم بالنسبة لمن لا يعرف شيئا في الحساب والجبر والرياضيات . . وعند العالمين لها معاني خطيرة .

كذلك هذه الحروف حينما يكشف لنا عن معناها .

قال صاحبي في سخرية :

ـ وهل كشف لك عن معناها ؟ .

قلت وأنا ألقي بالقنبلة :

ـ هذا موضوع مثير يحتاج الى كلام آخر طويل سوف يدهشك .

● كهيعص

قلت لصديقي الملحد :

ـ لا شك أن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور قد صدمتك حينما طالعتها لأول مرة . . هذه الـ حم طسم أ ل م كهيعص . . ق . . ص . . ترى ماذا قلت لنفسك وأنت تقرأها ؟

أكتفى بأن يمط شفتيه في لامبالاة ويقول في غمغمة مبتورة :

ـ يعني .

ـ يعني ماذا .

ـ يعني . . أي كلام يضحك به النبي عليكم .

ـ حسنا دعنا نختبر هذا الكلام الذي ندعي أنه كلام فارغ والذي تصورت أن النبي يضحك به علينا .

ودعنا نأخذ سورة صغيرة بسيطة من هذه السور . . سورة ق مثلا . . ونجري تجربة . . فنعد ما فيها من قافات وسنجد أن فيها ٥٧ قافا ، ثم نأخذ السورة التالية وهي سورة الشورى وهي ضعفها في الطول وفي فواتحها حرف ق أيضا . . وسنجد أن فيها هي الأخرى ٥٧ قافا .

هل هي صدفة . . لنجمع ٥٧ + ٥٧ = ١١٤ عدد سور القرآن . . هل تذكر كيف تبدأ سورة ق . . وكيف تختتم . . في بدايتها « ق والقرآن

المجيد » . . وفي ختامها . . « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » . . وكأنما هي اشارات بأن ق ترمز للقرآن . . « ومجموع القافات ١١٤ وهي مجموع سور القرآن » .

قال صاحبي في لامبالاة :

ـ هذه أمور من قبيل الصدف .

قلت في هدوء :

ـ سنمضي في التجربة ونضع سور القرآن في العقل الالكتروني ونسأله أن يقدم لنا احصائية بمعدلات توارد حرف القافات في جميع السور .

قال وقد توترت أعصابه وتيقظ تماما :

ـ وهل فعلوها ؟

قلت في هدوء :

ـ نعم فعلوها .

ـ وماذا كانت النتيجة

ـ قال لنا العقل الالكتروني أن أعلى المتوسطات والمعدلات موجودة في سورة ق وأن هذه السورة قد تفوقت حسابيا على كل المصحف في هذا الحرف . . هل هي صدفة أخرى .

ـ غريب .

ـ وسورة الرعد تبدأ بالحرف أ ل م ر قدم لنا العقل الالكتروني

احصائية بتوارد هذه الحروف في داخل السور كالآتي :

أ ترد ٦٢٥ مرة

ل ترد ٤٧٩ مرة

م ترد ٢٦٠ مرة

ر ترد ١٣٧ مرة

هكذا وفي ترتيب تنازلي أ ثم ل ثم م ثم ر بنفس الترتيب الذي تبت به أ ل م ر تنازليا ثم قام العقل الالكتروني بإحصاء معدلات توارد هذه الحروف في المصحف كله . . وألقى الينا بالقنبلة الثانية . . أن أعلى المعدلات والمتوسطات لهذه الحروف هي في سورة الرعد . . وأن هذه السورة تفوقت حسابيا في هذه الحروف على جميع المصحف .

نفس الحكايلة في أ ل م البقرة .

أ وردت ٤٥٩٢ مرة

ل وردت ٣٢٠٤ مرات

م وردت ٢١٩٥ مرة

بنفس الترتيب التنازلي أ ل م .

ثم يقول لنا العقل الالكتروني أن هذه الحروف الثلاثة لها تفوق حسابي على باقي الحروف في داخل سورة البقرة .

نفس الحكاية في أ ل م سورة آل عمران .

أ وردت ٢٥٧٨ مرة

ل وردت ١٨٨٥ مرة

م وردت ١٢٥١ مرة

بنفس الترتيب التنازلي أ ل م وهي تتوارد في السورة بمعدلات أعلى من باقي الحروف .

نفس الحكاية في أ ل م سورة العنكبوت .

أ وردت ٧٨٤ مرة

ل وردت ٥٥٤ مرة

م وردت ٣٤٤ مرة

بنفس الترتيب التنازلي أ ل م وهي تتوارد في السورة بمعدلات أعلى من باقي الحروف .

نفس الحكاية في أ ل م سورة الروم .

أ وردت ٥٤٧ مرة

ل وردت ٣٩٦ مرة

م وردت ٣١٨ مرة

بنفس الترتيب التنازلي أ ل م ثم هي تتوارد في السورة بمعدلات أعلى من باقي الحروف .

وفي جميع السور التي ابتدأت بالحروف أ ل م نجد أن السور المكية تتفوق حسابيا في معدلاتها على باقي السور المكية ، والمدنية تتفوق حسابيا

في معدلاتها من هذه الحروف على باقي السور المدنية .

وبالمثل في أ ل م ص سورة الأعراف .

يقول لنا العقل الالكتروني أن معدلات هذه الحروف هي أعلى ما تكون في سورة الأعراف ، وأنها تتفوق حسابيا على كل السور المكية في المصحف .

وفي سورة طه نجد أن الحرف ط والحرف هـ يتواردان فيها بمعدلات تتفوق على كل السور المكية . . وكذلك في كهيعص مريم ترتفع معدلات هذه الحروف على كل السور المكية في المصحف .

كما نجد أن جميع السور التي افتتحت بالحروف حم . . اذا ضمت الى بعضها فان معدلات توارد الحرف ح والحرف م تتفوق على كل السور المكية في المصحف .

وبالمثل السورتان اللتان افتتحتا بحرف ص وهما سورة ص والأعراف « أ ل م ص » ويلاحظ أنهما نزلتا متتابعتين في الوحي . . اذا ضمتا معا تفوقتا حسابيا في هذه الحروف على باقي المصحف .

وكذلك السور التي افتتحت بالحروف أ ل ر وهي ابراهيم ويونس وهود ويوسف والحجر وأربع منها جاءت متتابعة في تواريخ الوحي . . اذا ضمت لبعضها . . أعطانا العقل الالكتروني أعلى معدلات في نسبة توارد حروفها أ ل ر على كل السور المكية في المصحف .

أما في سورة يس فاننا نلاحظ أن الدلالة موجودة ولكنها انعكست . . لأن ترتيب الحروف انعكس ، فالياء في الأول يس « بعكس الترتيب الأبجدي » .

ولهذا نرى أن توارد الحرف ي والحرف س في السورة هو أقل من تواردِه في جميع المصحف مدنيا ومكيا .

فالدلالة الاحصائية هنا موجودة ولكنها انعكست .

كان صاحبي قد سكت تماما .

قلت وأنا أطمئنه :

ـ أنا لا أقول هذا الكلام من عند نفسي وانما هي دراسة قام بها عالم مصري في أمريكا هو الدكتور رشاد خليفة . . وهذا الكتاب الذي بين يديك يقدم لك هذه الدراسة مفصلة .

Miracle of the Quran

Islamic Productions international in St. Louis mo

وقدمت اليه كتابا انجليزيا مطبوعا في أمريكا للمؤلف .

أخذ صاحبي يقلب الكتاب في صمت .

قلت :

ـ لم تعد المسألة صدفة . . وانما نحن أمام قوانين محكمة وحروف محسوبة كل حرف وضع بميزان ورحت أتلو عليه من سورة الشورى .

(الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) ١٧ ـ الشورى

وأي ميزان . . نحن هنا أمام ميزان يدق حتى يزن الشعرة والحرف . . أظن أن فكرة النبي الذي يؤلف القرآن ويقول لنفسه سلفا

سوف أؤلف سورة الرعد من حروف أ ل م ر وأورد بها أعلى معدلات من هذه الحروف على باقي الكتاب وهو لم يؤلف بعد الكتاب مثل هذا الظن لم يعد جائزا . . وأين هذا الذي يحصي له هذه المعدلات وهي مهمة لا يستطيع أن يقوم بها الا عقل الكتروني ولو تكفل هو بها فإنه سيقضي بضع سنين ليحصي الحروف في سورة واحدة يجمع ويطرح بعلوم عصره وهو لا يعرف حتى علوم عصره وهل سيؤلف أو يشتغل عدادا للحروف .

نحن هنا أمام استحالة .

فاذا عرفنا أن القرآن نزل مفرقا ومقطعا على ٢٣ سنة . . فإنا سوف نعرف أن وضع معدلات احصائية مسبقة بحروفه هي استحالة أخرى . . وأمر لا يمكن أن يعرفه الا العليم الذي يعلم كل شيء قبل حدوثه والذي يحصي بأسرع وأدق من كل العقول الالكترونية . . الله الذي أحاط بكل شيء علما . . وما هذه الحروف المقطعة في فواتح السور الا رموز علمه بثها في تضاعيف كتابه لنكشفها نحن على مدى الزمان .

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)
٥٣ ـ فصلت

ولا أقول أن هذه كل أسرار الحروف . . بل هي مجرد بداية لا أحد يدري الى أي آفاق سوف توصلنا .

وهذه الحروف بهذه الدلالة الجديدة تنفي نفيا باتا شبهة التأليف .

ثم هي تضعنا أمام موازين دقيقة ودلالات عميقة لكل حرف فلا يجرؤ أحدنا أن يقول أنه أمام . . أي كلام . . ألا ترى يا صاحبي أنك

أمام كلام لا يمكن أن يكون أي كلام .

ولم يجب صاحبي ، وإنما ظل يقلب الكتاب الانجليزي ويتصفحه ثم يعود فيقلبه دون أن ينطق بحرف .

● المعجزة

قال صاحبي :

ـ لا أفهم كيف يجوز للرب الرحيم الذي تصفونه بأنه رؤوف ودود كريم عفو غفور . . كيف يمكن لهذا الرب أن يأمر نبيه الخليل المقرب ابراهيم بأن يذبح ولده . . ألا ترى معي أن هذه مسألة صعبة التصديق ؟ .

ـ القصة تدل من سياقها وأحداثها على أن مراد الله من ابراهيم لم يكن ذبح ابنه بدليل أن الذبح لم يحدث . . وانما كان المراد أن يذبح ابراهيم شغفه الزائد بابنه ومحبته الزائدة لابنه وتعلقه الزائد بابنه . . اذ لا يجوز أن يكون في قلب النبي تعلق بغير الله . . لا دنيا ولا ولد ولا جاه ولا سلطان . . كل هذه الأمور لا يصح أن يتعلق بها قلب النبي . . وكما هو معلوم كان اسماعيل قد جاء لأبيه ابراهيم على كبر وعلى شيخوخة . . فشغف به الشيخ وتعلق به . . فجاء امتحان الله لنبيه ضروريا . . وما حدث في القصة يدل على سلامة هذا التفسير . . فما أن صدع النبي لأمر ربه وأشرع سكينه ليذبح ولده حتى جاء أمر السماء بالفداء .

ـ وما رأيك في معجزات ابراهيم العجيبة ودخوله النار دون أن يحترق . . وما فعله موسى من بعده حينما أخرج من عصاه ثعبانا ثم حينما شق بهذه العصا البحر ثم حينما أخرج يده من تحت ابطه فاذا هي بيضاء . . ألا تبدو هذه الأمور وكأنها عرض بهلواني في سيرك . . وكيف

يدلل الله على قدرته وعظمته بهذه البهلوانيات التي هي في حد ذاتها . . صنوف من اللامعقول . . وأمثلة من خرق النظام . . ألا يبدو أن البرهان الأقوى على عظمة الله هو النظام والعقل والانضباط والقوانين في سريانها الجميل في الكون دون أن تخرق .

ـ لقد فهمت المعجزة خطأ . . وتصورتها خطأ .

المعجزة في تصورك عمل بهلواني وخرق للقانون ولا معقول ولكن الحقيقة غير ذلك .

ودعني أقرب الموضوع الى ذهنك بمثل . . لو أنه قدر لك أن تعود ثلاثة آلاف سنة الى الوراء ثم تدخل على فرعون مصر في ذلك الزمن البائد ومعك ترانزستور في حجم علبة الثقاب يتكلم ويغني من تلقاء نفسه . . ترى ماذا سيكون حال فرعون وحاشيته ـ سيهتفون في ذهول بلا شك معجزة . . سحر . . لا معقول . . خرق لجميع القوانين . . ولكننا نعلم الآن أنه لا اعجاز في الموضوع ولا سحر ولا خرق لأي قانون . . بل أن ما يحدث في داخل الترانزستور هو أمر يجري حسب قوانين في علم الالكترونيات . . وأنه معقول تماما . وسيكون الأمر أعجب لو أنك دخلت على ملك بابل وفي يدك تليفزيون ينقل الصور من بلاد الروم . . وسوف يصفق ملك أشور عجبا لو أنك أدرت له أسطوانة بلاستيك فتكلمت .

بل ان التاريخ ليحفظ لنا قصة مماثلة حينما نزل المستعمرون افريقيا . . وحطت أول طائرة لهم في الغابة وسط البدائيين . . ماذا حدث . . سجد الزنوج العراة على وجوههم ودقوا الطبول وذبحوا

القرابين وظنوا أن الله نزل من سماواته وتصوروا فيما حدث خرقا لجميع القوانين . . مع أننا نعلم الآن أن الطائرة تطير بقانون وتنزل بقانون وأنها مصممة حسب القوانين الهندسية المحكمة . . وأن طيرانها أمر معقول تماما ـ وأنها لا تخرق قانون الجاذبية . . وانما تتجاوز هذا القانون بقانون آخر هو قانون الفعل ورد الفعل ، نحن اذن أمام تفاضل قوانين وليس أمام خرق قوانين . . والماء يصعد في ساق النخلة ضد الجاذبية ليس بخرق هذه الجاذبية وانما بمجموعة قوانين فسيولوجية تتفاضل معها . . هي قانون تماسك العمود المائي وقانون الخاصة الشعرية وقانون الضغط الازموزي . . وهي جميعها قوانين تؤدي الى شد الماء الى أعلى .

نحن دائما لا نخرج عن العقل ولا عن المعقول وما حدث لم يكن بهلوانيات . . وانما كانت دهشة الزنوج البدائيين مردها جهلهم بهذه القوانين . . وكذلك دهشتك أمام شق موسى للبحر واخراجه للثعبان من العصا واحياء عيسى للموتى ودخول ابراهيم للنار دون أن يحترق . . تصورت أنها لا معقول وخرق للقوانين وبهلوانيات . . بينما هي تجري جميعها على وفاق قوانين الهية تتفاضل مع القوانين التي نعرفها . . وهي اذن صنوف من النظام . . ومن المعقول . . ولكن أعلى من مداركنا والله لا يهدم النظام بهذه المعجزات وانما يشهدنا على نظام أعلى وقوانين أعلى وعقل أكبر من استيعابنا .

وقد وقع البهائيون في نفس غلطتك حينما رفضوا المعجزات وتصوروا أن قبولها فيه امتهان للعقل وازدراء بالعقل فتحايلوا على القرآن وحرفوا معانيه عن ظاهرها فموسى لم يشق البحر بعصاه . . وانما كانت

عصاه هي الشريعة التي فرقت الحق من الباطل وبالمثل كانت يده البيضاء هي رمز ليد الخير . . وبالمثل أحيا عيسى النفوس ولم يحيي الأجساد . . وفتح العقول ولم يفتح العيون العمياء . . وبهذا أخرجوا القرآن عن معانيه الحرفية الى تأويلات وتفسيرات مجازية ورمزية كلما اصطدموا بشيء لم يعقلوه .

وكان هذا لأنهم أخطأوا فهم المعجزة وتصوروا أنها لا معقول وخرق للقانون وهدم للنظام . . وهو نفس ما وقعت فيه .

والحق أننا نعيش في عصر لم تعد تستغرب فيه المعجزات .

وقد رأينا العلم يأخذ بيدنا الى سطح القمر . واذا كان العلم البشري أعطانا كل هذا السلطان ، فالعلم الالهي اللدني لا شك يمكن أن يمدنا بسلطان أكبر .

استمع الى هذه الآية الجميلة :

(يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . . لا تنفذون الا بسلطان) . ٣٣ ـ الرحمن

وهذا هو السلطان . . العلم البشري . . وأعظم منه العلم الالهي .

● معنى الدين

قال صاحبي :

ـ اسمع . . اذا كانت عندكم جنة كما تقولون . . فأنا أول واحد سوف يدخلها فأنا أكثر دينا من كثير من دعاتكم من أصحاب اللحى والمسابح .

ـ أكثر دينا . . ماذا تعني بهذا .

ـ أعني اني لا أؤذي أحدا ولا أسرق ولا أقتل ولا أرتشي ولا أحسد ولا أحقد ولا أضمر سوءا لمخلوق ولا أنوي الا الخير ولا أهدف الا الى النفع العام . . أصحو وأنام بضمير مستريح وشعار حياتي هو الاصلاح ما استطعت . . أليس هذا هو الدين ألا تقولون عندكم أن الدين المعاملة .

ـ هذا شيء له اسم آخر . . اسمه حسن السير والسلوك . . وهو من مقتضيات الدين ولكنه ليس الدين . . إنك تخلط بين الدين وبين مقتضياته . . والدين ليس له الا معنى واحد هو معرفة الاله . . أن تعرف الهك حق المعرفة ويكون بينك وبين هذا الاله سلوك ومعاملة . . أن تعرف الهك عظيما جليلاً قريبا مجيبا يسمع ويرى فتدعوه راكعاً ساجدا خاشعا خشوع العبد للرب . . هذه المعاملة الخاصة بينك وبين الرب هي الدين . . أما حسن معاملتك لإخوانك فهي من مقتضيات هذا التدين وهي في حقيقة الأمر معاملة للرب أيضا .

يقول نبينا عليه الصلاة والسلام :

« إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في هذا السائل »

فمن أحب الله أحب مخلوقاته وأحسن اليها . . أما اذا اقتصرت معاملاتك على الناس لا تعترف الا بهم ولا ترى غيرهم ولا ترى غير الدنيا فأنت كافر تماما وإن أحسنت السير والسلوك مع هؤلاء الناس . . انما يدل حسن سيرك وسلوكك على الفطانة والكياسة والسياسة والطبع اللبيب وليس على الدين . فأنت تريد أن تكسب الناس لتنجح في حياتك وحسن سيرك وسلوكك ذريعة الى كسب الدنيا فحسب . . وهذه طباع أكثر الكفار امثالك .

ـ صدقني أنا أشعر أحيانا بأن هناك قوة .

ـ قوة . . !

ـ نعم ثمة قوة مجهولة وراء الكون . أنا أؤمن تماما بأن هناك قوة

ـ وما تصورك لهذه القوة . . أتتصورها كائنا يسمع ويرى ويعقل ويتعهد مخلوقاته بالرعاية والهداية وينزل لهم الكتب ويبعث لهم الرسل ويستجيب لصرخاتهم وتوسلاتهم .

ـ بصراحة أنا لا أصدق هذا الكلام ولا أتصوره وأكثر من هذا أراه ساذجاً لا يليق بهذه القوة العظيمة .

ـ اذن فهي قوة كهرمغنطيسية عمياء تسوق الكون في عبثية لا خلاّق لها . . وهذه هي الصفة التي تليق بقوتك العظيمة .

ـ ربما .

ـ بئس ما تصورت الهك . خلق لك البصر فتصورته أعمى . . وخلق لك الرشد فتصورته عابثا أخرق . . والله أنك الكافر بعينه ولو أحسنت السير والسلوك مدى الدهر . . وأن أعمالك الصالحة مصيرها الاحباط يوم الحساب وأن تتبدد هباء منثورا .

ـ ألا يكون هذا ظلما .

ـ بل هو عين العدل . . فقد تصورت هذه الأعمال من ذاتك ليس وراءها الهادي الذي هداك والرشيد الذي أرشدك . . فظلمت الهك وأنكرت فضله وهذا هو الفرق بين طيبات المؤمن وطيبات الكافر اذا استوى الاثنان في حسن السير والسلوك الظاهر . . فكلاهما قد يبني مستشفى لعلاج المرضى . . فيقول الكافر . . أنا بنيت هذا المستشفى العظيم للناس .

ويقول المؤمن : وفقني ربي الى بناء هذا المستشفى للناس . وما كنت الا واسطة خير . . وما أكبر الفرق . . واحد أسند الفضل لصاحب الفضل ولم يبق لنفسه فضلا الا مجرد الوساطة وحتى هذه يشكر عليها الله ويقول أحمدك يا ربي أن جعلتني سببا . . فارق كبير بين الكبرياء والتواضع . . وبين العلو وخفض الجناح . . بين الجبروت والوداعة . . ولهذا فأنتم في ديانتكم الوثنية لهذه القوة الكهرمغنطيسية العمياء لا تصلون ولا تسجدون .

ـ ولماذا نصلي ولمن نصلي . . اني لا أرى لصلاتكم هذه أي حكمة . . ولماذا كل تلك الحركات أما كان يكفي الخشوع .

ـ حكمة الصلاة أن يتحطم هذا الكبرياء المزيف الذي تعيش فيه لحظة سجودك وملامسة جبهتك التراب وقولك بلسانك وقلبك :

« سبحان ربي الأعلى » . . وقد عرفت مكانك أخيرا وأنك أنت الأدنى وهو الأعلى . . وأنك تراب على التراب وهو ذات منزهة من فوق سبع سماوات .

أما لماذا الحركات في الصلاة ولماذا لا نكتفي بالخشوع القلبي فاني أسألك بدوري ولماذا خلق لك الجسد أصلا . ولماذا لا تكتفي بالحب الشفوي فتريد أن تعانق وتقبل . . لماذا لا تكتفي بالكرم الشفوي فتجود باليد والمال . . بل خلق الله لك الجسد ليفضح قلبك . . فما كان في قلبك بحق فاض على جسدك اذا كان خشوعك صادقا فاض على جسدك فركعت وسجدت . . وان كان خشوعك زائفا لم يتعد لسانك .

ـ هل تعتقد أنك ستدخل الجنة .

كلنا سنرد النار ثم ينجي الله الذين اتقوا ، ولا أعرف هل اتقيت أم لا . يعلم هذا علّام القلوب وكل عملي للأسف حبر على ورق . . وقد يسلم العمل ولا تسلم النية . . وقد تسلم النية ولا يسلم الاخلاص . . فيظن الواحد منا أنه يعمل الخير لوجه الله وهو يعمله للشهرة والدنيا والجاه بين الناس . . وما أكثر ما يخدع الواحد منا في نفسه ويدخل عليه التلبيس وحسن الظن والاطمئنان الكاذب من حيث لا يدري . . نسأل الله السلامة .

ـ وهل يستطيع الانسان أن يكون مخلصا ؟ .

ـ لا يملك ذلك من تلقاء نفسه وانما الله هو الذي يخلص القلوب ولهذا يتكلم القرآن في أكثر الآيات عن المخلَصين ـ بفتح اللامْ ـ وليس المخلصين بكسر اللام . ولكن الله وعد بأن « يهدي اليه من ينيب » أي كل من يؤوب ويرجع اليه . . فعليك بالرجوع اليه . . وعليه الباقي .

● فزنا بسعادة الدنيا وفزتم بالأوهام

قال صاحبي . . وكانت في نبرته فرحة رجل منتصر :

ـ مهما اختلفنا ومهما طال بنا الجدل فلا شك أننا خرجنا من معركتنا معكم منتصرين فقد فزنا بسعادة الدنيا وخرجتم أنتم ببضعة أوهام في رؤوسكم . . وماذا يجدي الكلام وقد خرجنا من الدنيا بنصيب الأسد . . فلنا السهرة والسكرة والنساء الباهرات والنعيم الباذخ واللذات التي لا يعكرها خوف الحرام . . ولكم الصيام والصلاة والتسابيح وخوف الحساب . . من الذي ربح .

ـ هذا لو كان ما ربحتموه هو السعادة . . ولكن لو فكرنا معا في هدوء لما وجدنا هذه الصورة التي وصفتها عن السهرة والسكرة والنساء الباهرات والنعيم الباذخ واللذات التي لا يعكرها خوف الحرام . . لما وجدنا هذه الصورة الا الشقاء بعينه .

ـ الشقاء . . وكيف ؟ .

ـ لأنها في حقيقتها عبودية لغرائز لا تشبع حتى تجوع واذا اتخمتها أصابها الضجر والملال وأصابك أنت البلادة والخمول . . هل تصلح أحضان امرأة لتكون مستقر سعادة والقلوب تتقلب والهوى لا يستقر على

حال والغواني يغرهن الثناء . . وما قرأنا في قصص العشاق الا التعاسة فاذا تزوجوا كانت التعاسة أكبر وخيبة الأمل أكبر لأن كلا من الطرفين سوف يفتقد في الآخر الكمال المعبود الذي كان يتخيله . . وبعد قضاء الوطر وفتور الشهوة يرى كل واحد عيوب الآخر بعدسة مكبرة . . وهل الثراء الفاحش الا عبودية اذ يضع الغني نفسه في خدمة أمواله وفي خدمة تكثيرها وتجميعها وحراستها فيصبح عبدها بعد أن كانت خادمته . . وهل السلطة والجاه الا مزلق الى الغرور والكبر والطغيان . . وهل راكب السلطان الا كراكب الأسد يوما هو راكبه ويوما هو مأكوله . . وهل الخمر والسكر والمخدرات والقمار والعربدة والجنس بعيدا عن العيون وبعيدا عن خوف الحرام سعادة . . وهل هي ألا أنواع من الهروب من العقل والضمير وعطش الروح ومسئولية الانسان بالاغراق في ضرام الشهوة وسعار الرغبات . . وهل هو ارتقاء أم هبوط الى حياة القرود وتسافد البهائم وتناكح السوائم . . صدق القرآن اذ يقول عن الكفار . . أنهم :

(يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم) ١٢ ـ محمد

فهو لم ينكر أنهم يتمتعون ولكن كما تتمتع الأنعام ـ وكما ترعى السوائم . . وهل هذه سعادة ـ وهل حياة الشهوة تلك الا سلسلة من الشبق والتوترات والجوع الأكال والتخمة الخانقة لا تمت الى السعادة الحقة بسبب . . وهل تكون السعادة الحقة الا حالة من السلام والسكينة النفسية والتحرر الروحي من كافة العبوديات . . وهل هي في تعريفها النهائي الا « حالة صلح بين الانسان ونفسه وبين الانسان والآخرين وبين الانسان والله » . . وهذه المصالحة والسلام والأمن النفسي لا تتحقق الا

بالعمل . . بأن يضع الانسان قوته وماله وصحته في خدمة الآخرين وبأن يحيا حياة الخير والبر نية وعملا وأن تتصل العلاقة بينه وبين الله صلاة وخشوعا فيزيده الله سكينة ومددا ونورا . . وهل هذه السعادة الا الدين بعينه . . ألم يقل الصوفي لابس الخرقة . . نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف . . والذين عرفوا تلك اللذة . . لذة الصلة بالله والصلح مع النفس . . يعلمون أن كلام الصوفي على حق .

ـ ألم تكن مثلنا من سنوات تسكر كما نسكر وتلهو كما نلهو وتسعد هذه السعادة الحيوانية التي نسعدها وتكتب الكفر بعينه في كتابك الله والانسان فتسبق به الحاد الملاحدة فماذا غيرك من النقيض الى النقيض .

ـ سبحانه يغير ولا يتغير .

ـ أعلم أنك تقول أن كل شيء بفضل الله . . ولكن ماذا كان دورك . . وماذا كان سعيك ؟ .

ـ نظرت حولي فرأيت أن الموت ثم التراب نكتة وعبثا وهزلا ورأيت العالم حولي كله محكما دقيقا منضبطا لا مكان فيه للهزل ولا للعبث . . ولو كانت حياتي عبثا كما تصور العابثون ونهايتها لا شيء . . فلماذا أبكي ولماذا أندم ولما أتحرق وألتهب شوقا الى الحق والعدل وأفتدي هذه القيم بالدم والحياة .

رأيت النجوم تجري في أفلاكها بقانون . . ورأيت الحشرات الاجتماعية تتكلم والنباتات ترى وتسمع وتحس . . ورأيت الحيوانات لها أخلاق . . ورأيت المخ البشري عجيبة العجائب يتألف من عشرة آلاف

مليون خط عصبي تعمل كلها في وقت واحد في كمال معجز . . ولو حدث بها عطل هنا أو هناك لجاء في أثره الشغل والعمى والخرس والتخليط والهذيان وهي أمور لا تحدث الا استثناء . . فما الذي يحفظ لهذه الآلة الهائلة سلامتها ومن الذي زودها بكل تلك الكمالات .

ورأيت الجمال في ورقة الشجر وفي رِيشة الطاووس وجناح الفراش وسمعت الموسيقى في صدح البلابل وسقسقة العصافير وحيثما وجهت عيني رأيت رسم رسام وتصميم مصمم وابداع يد مبدعة .

ورأيت الطبيعة بناء محكما متكاملا تستحيل فيها الصدفة والعشوائية . . بل كل شيء يكاد يصرخ . . دبرني مدبر . . وخلقني مبدع قدير .

وقرأت القرآن فكان له في سمعي رنين وايقاع ليس في مألوف اللغة وكان له في عقلي انبهار . . فهو يأتي بالكلمة الأخيرة في كل ما يتعرض له من أمور السياسة والاخلاق والتشريع والكون والحياة والنفس والمجتمع رغم تقادم العهد على نزوله أكثر من ألف وثلاثمائة سنة . . وهو يوافق كل ما يستجد من علوم رغم أنه أتى على يد رجل بدوي أمي لا يقرأ ولا يكتب في أمة متخلفة بعيدة عن نور الحضارات . . وقرأت سيرة هذا الرجل وما صنع . . فقلت . . بل هو نبي . . ولا يمكن أن يكون الا نبي . . ولا يمكن لهذا الكون البديع إلا أن يكون صنع الله القدير الذي وصفه القرآن . . ووصف أفعاله .

قال صاحبي ـ بعد أن أصغى باهتمام الى كل ما قلت . . وراح

يتلمس الثغرة الأخيرة :

ـ فماذا يكون الحال لو أخسأت حساباتك وانتهيت بعد عمر طويل الى موت وتراب ليس بعده شيء ؟ .

ـ لن أكون قد خسرت شيئا فقد عشت حياتي كأعرض وأسعد وأحفل ما تكون الحياة . . ولكنكم أنتم سوف تخسرون كثيرا لو أصابت حساباتي وصدقت توقعاتي . . وانها لصادقة سوف تكون مفاجأتكم هائلة يا صاحبي .

ونظرت في عمق عينيه وأنا أتكلم فرأيت لأول مرة بحيرة من الرعب تنداح في كل عين ورأيت أجفانه تطرف وتختلج .

كانت لحظة عابرة من الرعب . . ما لبث ان استعاد بعدها توازنه . . ولكنها كانت لحظة كافية لأدرك أنه بكل غروره وعناده ومكابرته واقف على جرف من الشك والخواء والفراغ وممسك بلا شيء .

قال لي بنبرة حاول أن يشحنها باليقين :

ـ سوف ترى أن التراب هو كا ما ينتظرك وينتظرنا .

ـ هل أنت متأكد . .

وللمرة الثانية انداحت في عينيه تلك البحيرة من الرعب .

قال وهو يضغط على الحروف وكأنما يخشى أن تخونه نبراته :

ـ نعم . .

قلت :

ـ كذبت . . فهذا أمر لا يمكن ان نتأكد منه أبدا .

وحينما كنت أعود وحدي تلك الليلة بعد حوارنا الطويل كنت أعلم أني قد نكأت في نفسه جرحا . . وحفرت تحت فلسفته المتهاوية حفرة سوف تتسع على الأيام ولن يستطيع منطقه المتهافت أن يردمها .

قلت في نفسي وأنا أدعو له . . لعل هذا الرعب ينجيه . . فمن سد على نفسه كل منافذ الحق بعناده لا يبقى له الا الرعب منفذا .

وكنت أعلم أني لا أملك هدايته . . ألم يقل الله لنبيه . .

(إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)

ولكني كنت أتمنى له الهداية وأدعو له بها فليس أسوأ من الكفر ذنبا ولا مصيرا .

فهرس